كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

تعـدد وصف الأجـر فى القرآن الكـريم وأســراره البلاغية

إعداد

ممدوح شعراوى محمود محمد

المدرس بكلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الثلاثون – الجزء الثالث نوفمبر ٢٠١١م)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذى نستعين به على قضاء حوائج الدنيا والدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ... ثم أما بعد

فقد جاءت فكرة هذا البحث فى وقت لم تكن الحاجة إليه مُلحة إلى إعداده، أو هناك ما يدعو إلى جمعه بأوراقه ومداده ، حيث نبتت بذرة هذا العمل فى حقل مرحلة " الدكتوراه " ، عندما كنت بصدد الحديث عن الأفعال الدالة على الحركة الانتقالية من أسفل إلى أعلى ، وعلاقتها بحروف الجر المختلفة ، وبخاصة عند الحديث عن الفعل "صعد " فقد كنت أبحث عن الدلالة الدقيقة لهذا الفعل ، والتى يختلف بها عن الفعل "عرج " وكان من تلك الكتب التى تيسر لى البحث فيها عن الفروق الدقيقة بين هذين الفعلين كتاب " دراسات جديدة فى إعجاز القرآن " للشيخ الجليل/ عبد العظيم المطعنى، حيث ذكر شيئاً عن الدلالة الخاصة للفعل " صعد " وذكر بعض تصريفات هذا الفعل ، واستشهد على هذه التصريفات ببعض آيات من الذكر الحكيم ، وكان من تلك الآيات التى استشهد بها قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ [النساء ٤٣] ، وقوله : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ [الكهف ٤٠] .

فوقفت أمام هذين الموضعين أنظر إلى اختلاف الصفة بين قوله: (طيبا) وقوله (زلقا) مع اتحاد الموصوف وهو (صعيد) ، وسألت نفسى ما سرُ هذا الاختلاف وما الداعى إليه ؟ ولماذا خُصت آية سورة النساء بوصف الصعيد بالطيب ، فقيل: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ بينما خصت آية سورة الكهف بوصفه بالجرز (وهو القاحل الأجرد) ، فقيل: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ ؟ وقلت لو جُمع هذا

الأمر فى القرآن ، واستُدل على السرّ وراء هذا التغاير بين الصفات مع اتحاد موصوفها ، لكن باباً آخر من أبواب الأسرار المكنونة لهذا الكتاب المعجز ، خاصة بعد أن وجدتُ – من دون حصر – من الصفات المتعددة مع الموصوف الواحد الشئ الكثير ، وذلك كما فى قوله سبحانه عن سيدنا يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ، وقوله فى السورة ذاتها على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم ٣٢] ، حيث وُسم قوله: ﴿ جباراً ﴾ مرة بـ (عصيا) وأخرى بـ (شقيا) .

وكما فى قوله – سبحانه – فى وصف البلاء بأنه عظيم مرة ، حيث يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة ٤٩] ، وأخرى بأنه حسن ، كما فى قوله: ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال١٧] ، وثالثة بأنه مبين ، كما فى قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [الصافات ١٠٦] ، وكما فى وصف الرزق بأنه كريم مرة ، وذلك كما فى قوله سبحانه عن المؤمنين: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال ٤] ، وبأنه حسن مرة أخرى ، حيث يقول جل فى علاه على لسان سيدنا شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود ٨٨] ، وكما فى قوله عن عباد الله المخلصين: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات ٤١] إلى غير ذلك مما وقعت عليه العين من كتاب الله تعالى ..... ولكن لم يكن هناك من الوقت ما يُتيح لى الخروج من حقل " الدكتوراه " إلى ما عداه أو سواه ... ولكن قيدت هذه الفكرة عملا بالمقولة المشهورة " العلم صيد وكتابته قيد " .

ولما مَنّ الله علىّ باجتياز مرحلة الدكتوراه ، كان أول شئ أفكر فيه – من الجانب العلمى – هو إعداد بحث حول فكرة " تعدد الصفة لموصوف واحد فى القرآن الكريم " وقبل جمع تلك الصفات مع موصوفاتها ، عرضت الأمر على أستاذى الفاضل أ.د/ محمود حسن مخلوف ، فأذكى فى نفسى هذه الرغبة ، وقوى من عزمى للوصول إلى جمع شتات تلك الفكرة ، ومن ثَمّ عقدت العزم على جمع تلك الصفات مع موصوفاتها فى القرآن ، فجمعت من ذلك شيئاً كثيراً ، ورأيت أن ما جمع يصلح لأن يكون رسالة فى مرحلة التخصص "الماجستير" أو فى مرحلة العالمية "الدكتوراه" ومن ثَمّ عقدت العزم على تخصيص بعض هذه الموصوفات مع صفاتها، لتكون محل البحث والدراسة ، حيث إن الأجدر بمن يريد التعرف على بعضٍ من أسرار هذا الكتاب المعجز ، أن يقف عند قطرة من فيض عطائه وأنواره ، ويحاول – أقول: ويحاول – أن يصل إلى مكنون سرّها وخبيئ لُبّها ، وما وراءها من بديع لفظها ، وسحر نظمها فى مكانها ، وكيف لا ؟ والقرآن فيه من حسن النظم الرائق ،ما عجزت عن مثله الخلائق ، ومن بداعة الأسلوب ، ما اهتزت له القلوب ، ومن جمال التناسق والائتلاف، ما طرد عن بابه التناقض والاختلاف ، مع ثراء اللفظ الموجز بالمعنى الغزير ، وإحاطته بكل أمر صغير أو كبير ، إلى جانب ما فيه من الإعجاز والإيجاز ، وروعة السبك ، وجمال السجع ، وبراعة التراكيب ، وإشراقة الأساليب ... ولا يخفى على كل ذى لُبّ أن القرآن قد أخذ من صنوف الكمال بحظ وافر ، وارتقى ذورة الفصاحة والبلاغة ، وكان منها بالمحل الأعلى ، وكان له من كل فضلٍ وحُسن وشرفٍ القدحُ المعلى .

ولذا توافد العلماء من جميع البقاع والأصقاع ، على هذا الكتاب الكريم ، لينهلوا من نبع فيضه الصافى ، ويتزودوا من مكنون علمه الشافى ، فنشأت من وراء ذلك أنواع من المؤلفات العلمية فى تعلُمه وتعليمه ، وقراءاته وتجويده ، وبيانه

وتفسيره ، وبلاغته وبيان إعجاز نظمه ، فكان سببا فى ازدهار المكتبة الإسلامية بمختلف أنواع العلوم .

ولما كانت نفسى طامحة أن يكون لها من البحث فى القرآن والكتابة حوله (أجرٌ) فى صحيفتها يُسطّر ، وينفعها يوم الصحائف تُنشر ، لعله يكون سببا فى نجاتها يوم الهول الأكبر ، عمدت إلى اختيار لفظ (الأجر) ليكون مع صفاته فى القرآن محل البحث والدراسة ، وذلك لتعدد صفات الأجر فى القرآن إلى خمس صفات هى: الكريم والحسن والكبير والعظيم وغير الممنون ، مع تعدد الآيات التى وردت فيها كل صفة ، ومن ثَمّ فهى من الكثرة لكى تصلح أن تنهض ببحث فى هذا المضمار ، ومن هنا جاء هذا البحث تحت عنوان:

(تعدد وصف الأجر فى القرآن الكريم وأسراره البلاغية)

وكان من أسباب اختيارى لهذا الموضوع ما يلى:

أولاً: ما تناثر فى مؤلفات بعض القدماء حول لطائف نعت الموصوف الواحد بصفة هنا وأخرى هناك ، مع الإشارة إلى ذلك حينا وتركها أحياناً .

ثانياً: عدم الحصر لصفات الأجر فى بحث مستقل يكشف عن سر دلالتها فى مواقعها .

ثالثاً: التطلع إلى أن يكون هذا البحث حجر الأساس لمن أراد أن يتتبع بقية الموصوفات مع صفاتها فى القرآن ، ويتعرف على سرّ من أسرار النظم الكريم .

رابعاً: الرغبة فى أن يُثبت هذا البحث فى سجل المؤلفات التى تخدم كتاب الله عز وجل، وينال شرف تلك المنزلة .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الدراسة اصطفت المنهج التحليلى طريقا تسير عليه فى هذا البحث، مع انتفاعها بالموازنة بين بعض الآيات التى تستلزم ذلك .

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتى فى خمسة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد وتعقبها خاتمة وبعض الفهارس .

أما المقدمة: فذكرت فيها فكرة الموضوع ، وأهميته ، وأسباب اختياره .

أما التمهيد: فذكرت فيه نبذة مختصرة عن متشابه النظم القرآنى ، وذكرت كيف أن هذا البحث ينتمى إلى هذا النوع .

أما المبحث الأول: فكان بعنوان: الأجر الكريم .

أما المبحث الثانى: فكان بعنوان: الأجر الحسن .

أما المبحث الثالث: فكان بعنوان: الأجر الكبير

أما المبحث الرابع: فكان بعنوان: الأجر العظيم .

أما المبحث الخامس: فكان بعنوان : الأجر غير الممنون .

أما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التى وردت فى هذا البحث ، ثم جاء بعد الخاتمة فهرس المصادر والمراجع ، ثم فهرس الموضوعات .

والله أسأل أن يُعيذنى بعد طول الأمل فيه ، وحُسن الظن به ، من الخيبة والخسران ، آمين آمين .

ممدوح شعراوى محمود

المدرس بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

تمهيد

عن متشابه النظم القرآنى

من المعلوم عند أهل العلم أن من أعظم وجوه الإعجاز القرآنى ما سمى عند الأئمة بإعجاز النظم ، أو الإعجاز البلاغى ، وقد تنوعت صور هذا الوجه ، وتناول العلماء الكثير منها على سبيل الاستشهاد والتمثيل ، لكنهم لم يستقصوا هذا الجانب استقصاء كاملا ، بل تركوا للأجيال اللاحقة الباب مفتوحا للتطبيق ، غير أن بعض وجوه الإعجاز البلاغى كان حظه من جهود الأئمة أقل من غيره، وذلك لملابسات وأسباب خاصة مفصلة فى مظانها.

ومن هذه الوجوه علم " متشابه النظم القرآنى " وهو من أجل علوم الإعجاز ؛ لما فيه من براهين كاشفة تهدى بيقين إلى إعجاز القرآن الكريم ، وقد عرفه صاحب البرهان بأنه: " إيراد القصة الواحدة فى صور شتى وفواصل مختلفة ، ويكثر فى إيراد القصص والأنباء ، وحكمته التصرف فى الكلام ، وإتيانه على ضروب ، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكررا " [1].

وذكر له – رحمه الله – صورا متعددة منها:

- التقديم والتأخير كقوله فى البقرة : ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (٥٨) ، وفى الأعراف : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً ﴾ (١٦١)
- ومنها ما يشتبه بالزيادة والنقصان ، كقوله فى البقرة: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (٢٣) ، وفى يونس : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣٨) .

([1]) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١١٢/١ تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى وشركاه.

- ومنها التعريف والتنكير ، كقوله فى البقرة : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٦١) ، وفى آل عمران: ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٢١) .
- ومنها الجمع والإفراد ، كقوله فى البقرة: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (٨٠) ، وفى أل عمران: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ (٢٤) .
- ومنها إبدال حرف بغيره،كقوله فى البقرة: ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا ﴾ (٣٥) بالواو ، وفى الأعراف : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا ﴾ (١٩) بالفاء .
- ومنها إبدال كلمة بأخرى، كقوله فى آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾(٤٧) وفى مريم: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ (٢٠) .

وإلى هذا الصنف أو تلك الصورة ينتمى ذالكم البحث الذى بين يدى القارئ الكريم؛لأنه يقوم على معرفة السرّ فى وجود وصف هنا،وإبداله بآخر هناك

- ومنها الإدغام وتركه ، كقوله فى الأنعام: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (٤٢) ، وفى الأعراف: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) ... إلخ ما ذكره ذالكم العالم الفاضل عن هذا العلم الجليل [١] .

وقد ذكر الإمام السيوطى – رحمه الله تعالى – هذا العلم عند حديثه عن الآيات المتشابهات فى النوع الثالث والستين من علوم القرآن ، وبين أن هذا العلم فتحه الإسكافى (٤٢٠هـ) فى كتابه: " درة التنزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز " [٢] .

---

(١) يراجع فى ذلك البرهان ١١٢/١ : ١٣٣ .

(٢) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، المجلد الثانى ٣٩٠/٣ ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

وكتب بعد الإسكافى فى هذا العلم العلامة الكرمانى كتابه: " البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان " لبرهان الدين أبى القاسم محمود بن حمزة ابن نصر الكرمانى ت (٥٠٥هـ) .

ثم جاء بعد الكرمانى العلامة الغرناطى بتحفته الغالية: " ملاك التأويل القاطع بذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظ من آى التنزيل " لأحمد بن إبراهيم ابن الزبير الغرناطى ت (٧٠٨هـ) ثم صنف العلامة بدر الدين بن جماعة (ت٧٣٣هـ) كتابه المعروف: " كشف المعانى عن المتشابه من المثانى ".

وألف بعد هؤلاء الشيخ زكريا الأنصارى (ت ٩٢٦هـ) كتابه: " فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن " .

إلا أن ما دبجة العلامة الغرناطى فى كتابه : " ملاك التأويل " هو من خير ما دونه أهل العلم بعد الإسكافى فى هذا الشأن .

وقد ذكر هؤلاء فى تلك الكتب الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة ، ولكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال كلمة مكان أخرى ، أو حرف مكان آخر ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التى تكررت من غير زيادة ولا نقصان ، مع بيان السبب فى تكرارها والفائدة فى إعادتها ، والموجب للزيادة هنا ، والنقصان هناك ، والداعى للتقديم فى هذه والتأخير فى تلك ، وإظهار الحكمة فى تخصيص الآية بذلك دون الأخرى ، وهل كان يصلح ما فى هذه السورة مكان ما فى السورة التى تشاكلها أم لا ؟ ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها وتمتاز به عن أشكالها [١] .

([١]) ينظر: أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى ١٧/١ ، ١٨ ، تح/ عبد القادر أحمد عطا – دار الاعتصام – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ .

وفى العصر الحديث نبه إلى فضل هذا العلم الشيخ أبو موسى فى كتابه " دلالات التراكيب " حين قال: " والبصير بما يريد أن يقول ... هو الذى يلاحظ هذه الفروق بين النظوم المتشابهة ، فينزل كل واحدة فى منزلها الأشبه بها ، فيفيد معناه وحسه إفادة وافية دقيقة ، وهذا هو رأس الأمر فى البلاغة ، وهذا هو توخى معانى النحو على حسب الأغراض التى تؤم ، لأن مراجعة المعانى فى النفس وتبيان ما بينها من فوارق وإن دقت وتحديد هذه الفوارق فى العبارة ، كل هذا يمثل فطنة الأديب ، وصفاء حسه وخبرته الناضجة بنفسه وفنه ... وعلى هذا النهج جاءت الدراسات التى سميت فى علوم القرآن بالمتشابهات ، وهى غير المتشابه الذى يذكر فى مقابلة المحكم ، والمراد بها تلك الأساليب المتشابهة فى الكتاب العزيز ، والتى تتمثل فروقها فى ذكر فاءٍ مكان واو ، أو فى ذكر لفظة هنا وحذفها هناك ، أو فى تقديم هنا وتأخير هناك ، والقصص والحوادث التى تتكرر وتتكرر معها عناصر كثيرة فى الأسلوب ، ترتبط بالسياق ارتباطاً بالغ الدقة والرهافة ، والكشف عنه يحتاج إلى مهارة ووعى وإحاطة شاملة ، وليس هناك أدخل فى باب البلاغة العالية من مثل هذه البحوث ، وقد سبق أن نبهنا إلى تشابه أوائل سورة البقرة بأوائل سورة النمل ، والفروق بينها تعظم والكشف عنها بلاغة جليلة .. ثم ختم الشيخ حديثه عن هذا الباب بقوله: ويجب أن تتوفر جهود الباحثين على هذا الجانب والتنقيب عن تراث السلف فيه " [1].

هذا وقد كشف العلامة السامرائى عن وجوه الإعجاز البلاغى فى متشابهات القرآن الكريم ، وطبقها بمهارة وأستاذيةٍ فى كتبه ، والتى منها:

([1]) دلالات التراكيب دراسة بلاغية للدكتور/ محمد محمد أبو موسى ص ٣٤٧ – ٣٤٨ ط الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، مكتبة وهبه .

التعبير القرآنى ، ولمسات بيانية ، ومعانى الأبنية فى العربية ، وبلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى ، وغيرها من المؤلفات العلمية التى تناولت هذا العلم الجليل ، وفعل مثل ذلك الأستاذ الدكتور/ محمد الأمين الخضرى فى كتابه " الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ " .

وقد يممت الدراسات الجامعية – مؤخراً – شطر هذا العلم ، وكتبت عدة رسائل حول بعض موضوعاته مثل:

*- مشتبه النظم فى قصص القرآن مقارنة وتحليل [١] .
*- والبلاغة القرآنية فى قصة موسى عليه السلام [٢]
*- ومشتبه النظم فى القرآن الكريم [٣] .
*- وبلاغة التكرار فى القرآن الكريم [٤] .
*- والتعبيرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة دراسة بلاغية[٥] .
*- ومتشابه النظم القرآنى بين الذكر والحذف [٦] .

---

(١) رسالة دكتوراه من إعداد عبد الغنى الراجحى – مخطوط فى كلية أصول الدين بالقاهرة برقم ٧٦ .
(٢) رسالة ماجستير من إعداد يحيى محمد يحيى– مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠١هـ /١٩٨٠م .
(٣) رسالة دكتوراه من إعداد عبد العزيز حسين خضر – كلية اللغة العربية بالقاهرة – نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .
(٤) رسالة دكتوراه من إعداد محمود عبد الحميد هوى – كلية اللغة العربية بالقاهرة – نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .
(٥) رسالة دكتوراه من إعداد محمد أحمد أحمد محمد – كلية اللغة العربية بالقاهرة – نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .
(٦) رسالة دكتوراه من إعداد سلامة دردير محمد على – كلية اللغة العربية بأسيوط – نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

*- وتبادل المفردات فى متشابه النظم القرآنى بين السياق والدلالة [١] .

*- ومتشابه النظم القرآنى بين التقديم والتأخير [٢] .

وقد راقتنى هذه الدراسات لما لمسته فيها من إرضاء الذوق البلاغى ، وإشباع العاطفة الإيمانية ، وإقناع العقل الواعى بما يحقق الغاية العظمى من الدراسات البلاغية ، من حيث إثبات أن ما بين دفتى المصحف ليس من كلام البشر وأنه تنزيل من حكيم حميد .

ولعلَّ فى تلك السطور التى مضت ما يصلح أن يكون قبساً يضى جوانب الطريق ، ويصل به المسترشد إلى موطنه العتيق ، ليقف على حاضر هذا العلم وماضيه ، ويعرف كيف صنف أهل العلم فيه ، فإما أن يقتفى أثرهم ويسلك دربهم، أو يحمد لهم صنيعهم ، ويستغفر الله لهم .

والله الموفق والمستعان

(١) رسالة دكتوراه من إعداد كمال أحمد محمد زين – كلية اللغة العربية بأسيوط– نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

(٢) رسالة ماجستير من إعداد عبد الهادى أحمد سيد– كلية اللغة العربية بأسيوط– نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

المبحث الأول

الأجـر الكريـــم

الناظر فى الذكر الحكيم يتبين له أن كلمة " الأجر " وصفت بالكريم فى أربع آيات من النظم الحكيم هى على حسب ترتيب المصحف كالتالى:

١ - قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب ٤٤].

٢ - قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس ١١] .

٣ - قال تعالى:﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد ١١].

٤ - قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد ١٨] (١) .

*****

وقبل التعرض لدراسة تلك الآيات ، ومعرفة السر الذى من أجله نعت الأجر بأنه كريم ، ينبغى الوقوف على ما قاله أهل العلم عن معنى اللفظين: الأجر، والكريم، حتى يكون القارئ على بينة من دلالة هذين اللفظين ، قبل التطواف حول تلك الآيات والتقاط ثمارها ، ومعرفة بعض من مكنون أسرارها ..

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى ص ٧٠٦ – دار الحديث القاهرة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

فـ (الأجر) : الجزاء على العمل ، والجمع (أجور) ، والإجارة من أَجَر يَأْجُر ، وهو ما أعطيت من أجر فى عمل [1] .

والأَجْر والأُجْرة ما يعود من ثواب العمل دنيوياً أو أخرويا ، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ ﴾ [يونس ٧٢] ، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت ٢٧].

والأجر والأجرة يقال فيما كان من عقد أو ما يجرى مجرى العقد ، ولا يقال إلا فى النفع دون الضر ، نحو قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة ٢٦٢] [2] .

أما (الكريم) فهو اسم جامع لكل ما يحمد ، فالله عز وجل كريم حميد الفعال .. وقيل فى شأن القرآن ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾[الواقعة ٧٧ ، ٧٨] ، أى قرآن يحمد ما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .. قال الفراء: العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شئ نفت عنه فعلا تنوى به الذم ، يقال: أسمين هذا ؟ فيقال: ما هو بسمين ولا كريم [3] .

و (الكريم) يطلق على الجواد الكثير النفع بحيث لا يطلب منه شئ إلا أعطاه – وإذا كان الأجر لا يقال إلا فى النفع دون الضر ، والكريم يطلق على الجواد الكثير النفع ، فهناك علاقة بين المعنى اللغوى لكل من الكلمتين ، وهو ما

([1]) لسان العرب لابن منظور ١٠/٤ – الطبعة الأولى – دار صادر – بيروت .

([2]) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى١٠ ، ١١، تح/ محمد سيد كيلانى – دار المعرفة –لبنان.

([3]) اللسان ٥١٠/١٢ .

يعرف بمراعاة النظير أو التناسب والائتلاف [١] – ويطلق من كل شئ على أحسنه، وهو صفة ما يرضى ويحمد فى بابه [٢] .

و (الكريم) النفيس العزيز ، وكرائم الأموال: الأموال النفيسة العزيزة على أصحابها [٣] .

هذه بعض دلالات اللفظين وما اكتنفتا من معانٍ أُريد بها تذكرة القارئ بها وتنبيهه إليها.. أما عن الآيات محل الدراسة، فأول ما يطالعك منها قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٤] .

والآية الكريمة تبين بعضا من آثار رحمته سبحانه الفائضة على المؤمنين بعد دخول الجنة ، عقب بيان آثار رحمته العاجلة التى وصلت إليهم فى دار الدنيا ، حيث قال جل فى علاه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٣] [٤] .

---

(١) مراعاة النظير هى: أن يجمع الناظم أو المتكلم بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، ينظر فى ذلك: خزانة الأدب لابن حجة الحموى ٢٩٣/١ ، تح/ عصام شعيتو –دار مكتبة الهلال– بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م والإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ٣٢٣/١م، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة١٩٩٨م.

(٢) الكليات لأبى البقاء الكفومى ٧٧٢ ، تح/ عدنان درويش – محمد المصرى – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

(٣) معجم لغة الفقهاء ٣٨٠/١ ، كتاب من الحاسب الآلى – المكتبة الشاملة – قسم معاجم اللغات الأخرى .

(٤) ينظر: روح المعانى للآلوسى ٤٤/٢٢ ، ٤٥ دار إحياء التراث العربى – بيروت .

وقوله جل فى علاه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ .... إلخ ﴾ الآية .. تعليل للأمر بالذكر والتسبيح الوارد فى قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب ٤١ – ٤٢] ، وكأنه قيل: لماذا نذكره ذكراً كثيراً ونسبحه بكرة وأصلا ؟ فجاء قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ رداً على هذا السؤال المقدر [1] ليبين أن فى الذكر والتسبيح مجلبة لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك ، فأفضل مما قد فعلوا – ومن هنا يستحقون الأجر الذى أعده الله لهم – حيث تنزل عليهم من الحق سبحانه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة ، ولعل فى اجتلاب (يصلى) بصيغة المضارع ، ما يفيد تكرار ذلك الأمر وتجدده كلما تجدد الذكر والتسبيح ، وكيف لا ؟ والحق جل فى علاه هو الذى يتولى أمر الصلاة عليهم بنفسه سبحانه فيزيد من إكرامهم ، ويبالغ فى الإحسان إليهم والإنعام عليهم ، فيجعل الملائكة المكرمين يشتغلون بالاستغفار والدعاء لهم ، ودعاء الملائكة مستجاب عند الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم يرتفع بذلك قدر المؤمنين ، ويتنامى إكرامهم مرحلة بعد أخرى .. و (اللام) فى قوله: ﴿ ليخرجكم .. ﴾ للتعليل متعلقة بقوله ﴿ يصلى ﴾ أى: يصلى عليكم هو وملائكته ليخرجكم من الضلالة ودوائر الشك ، إلى الهدى ونور الحق ، فلا خوف بعدها ولا رهبة ... وهذا بلا شك مظهر من مظاهر إكرام المؤمنين فى دار الدنيا [2] .

([1]) فبين الكلامين شبه كمال الاتصال ، ينظر: مختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى ، ص١٤٣ دار الفكر – الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

([2]) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٩/٢٢ ، الطبعة التونسية – دار سحنون للنشر والتوزيع ١٩٩٧م.

ثم يستأنف النظم الكريم نوعاً آخر من أنواع الإكرام لـه مكانـه اللائـق بـه ، فيقول: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ ، وهذه الجملة مناسبة لحالهم السابق ملائمة لـه ، لأنـه لمـا ذكـروا الله فـى دار الـدنيا ، حصـل لهـم بسـبب ذلـك الـذكر نـوع مـن أنـواع المعرفة به جل فى علاه ، ولما سبحوه تأكدت تلك المعرفة ، حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال ، والحق سبحانه يعلم بحالهم هذا ، ومن ثم أحسن إليهم وأكرمهم عند وفادتهم عليه سبحانه بهذه التحية التى خصهم بها [1]

وقد انطوى القول الكريم : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ على مظهرين جليلين:

الأول: أن تلك الجماعة المؤمنـة تلقـى الله تعالى وتكرم بالمثول فـى حضرة قدسه جل فى علاه .

الثانى: هو أن الحق جل فى علاه يقبل على تلك الجماعة المؤمنـة التـى ذكرته وسبحته فى الدنيا كثيرا ، ويكلمهم ، ويحييهم بالأمن والسلام فى يوم الفزع الأكبر ، وما أبرها تحية ، وما أبردها على قلوب المؤمنين ، ثم انظر إلى إيجاز التحية ، وكيف جاءت بلفظ واف (سلام) وما وراء ذلك من الدلالة على سلطان الربوبية ، وما بها من إكرام وإنعام ، ثم إنه لفظ ملئ جدا ؛ لأنـه (سلام) من قبل الله تبارك وتعالى ، والسلام المنَّكر من قبل الله تعالى – كما هنا ، وكما فى قولـه : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس ١٠] ، وقولـه: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد ٢٤] – يكون التنكير فيه للتقليل فإن قيل : أليس التقليل يتنافى مع الإكرام ؟ قيل: إن القليل من قبلـه سبحانه وتعالى

(1) ينظر: التفسير الكبير للفخر الرازى ١٨٦/٢٥ ، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

كثير وكثير ، وحسب المؤمنين فضلا أن يلقاهم الله تعالى ويحييهم ، ويلقى عليهم رداء الأمن والسلام [١] .

ثم يتوالى إكرام الله لهؤلاء المؤمنين ، ولا يقف عند حد التحية منه سبحانه وتعالى ، بل يدخر لهم أجراً لا يعلم مقداره إلا هو جل فى علاه ، حيث يقول: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ أى: " وهيأ عز وجل لهم ثواباً حسنا ، والظاهر أن التهيئة واقعة قبل دخول الجنة " [٢] .

فإن قيل: إن الإعداد إنما يكون مما لا يقدر عليه عند الحاجة إليه ، وهذا يصدق فى حق البشر ، أما الحق سبحانه فليس هناك حاجة ، وليس هناك عجز ، فحيث يلقاهم يؤتهم ما يرضون به وزيادة ، فما معنى الإعداد من قبل ؟ قيل: الإعداد هنا للإكراه لا للحاجة ، وهذا يقع كثيراً فى شأن الملوك لمن لهم عندهم شأن وحظوة ، فإن قيل لأحدهم: إن فلانا – الذى يحب – قادم إليك ، تراه يأمر بأن يُهَيَّأ له مكانٌ لاستقباله ، ثم يأمر بأنواع الإكرام والترحيب التى تليق به كى تُعَدَّ ، ولا يقول: إذا وصل نفتح له الخزانة ونعطيه ما يرضيه ، فكذلك المولى عز وجل – وله المثل الأعلى – لكمال الإكرام أعد لهم أجراً كريما [٣] .

ولعل فى قوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ ما يخيل أن الأجر كأنه مائدة أعدت بمعنى اكتملت وأعد ما فيها عدا ، حتى لا يكون هناك ضرب من ضروب

---

(١) ويمكن أن يكون التنكير للتعظيم والدوام ، [من أسرار التعبير القرآنى – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – د/ محمد محمد أبو موسى ، ص٣٦١ ، ٣٦٢ بتصرف – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م] .

(٢) روح المعانى ٤٤/٢٢ .

(٣) ينظر: التفسير الكبير ١٨٦/٢٥ .

الأجر والتكريم إلا وقد جئ به فى هذه المائدة المعدة ، ثم انظر إلى هذه المغايرة فى صياغة الجملتين ، حيث قال فى الأولى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ فتراه بناها على طريقة الاسمية ، وجعلها مقطع كلام ، للإشارة إلى تمييز هذا الضرب من التكريم ، وأنه صنف غير الصنف الأول الذى دل عليه قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ فالأول واقع فى الدنيا ، والثانى واقع يوم لقائه ، ثم عطف عليه قوله ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ لأن حفاوته بالذاكرين متصلة غير منقطعة ، هذا من حيث المعنى ، أما عن المحسن اللفظى لعطف فهو اتحاد الفاعل ، فالله هو الفاعل للتكريم فى كل[1] .

وقد بنى تركيب الجملة الثانية على الفعلية حيث قال: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ ولم يقل مثلا: وأجرهم أجر كريم ، إشارة إلى سبق العناية الأزلية فى حقهم ، وللمبالغة فى الترغيب والتشويق إلى الموعود ، ببيان أن الأجر الذى هو المقصد الأسمى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل قبل اللقاء،مُهَيّأ لهم قبل الحضور[2].

إذ ربما لو قيل : وأجرهم أجر كريم – ببناء الجملة على الاسمية – لربما توهم أن هذا الأجر سيكون عند اللقاء ، كما كانت التحية عند اللقاء ، فلكى يدفع النظم ذلك الوهم، ويمحو ذلك الفهم ، عمد إلى بناء الجملة على الفعلية ، فقال: ﴿وأعد ... ﴾ لكى يعلم أن هذا الأجر قد أعد وفرغ منه قبل لقائهم إياه ، وفى هذا بالغ الإكرام ووافر الإنعام ، وكيف لا ؟ والحق سبحانه أسند هذا الإعداد إلى ذاته

(1) من أسرار التعبير القرآنى – سورة الأحزاب ، د/ محمد أبو موسى ٣٦٢ بتصرف .

(2) ينظر: تفسير أبى السعود ١٠٧/٧ – دار إحياء التراث العربى – بيروت .

العلية فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ولم يقل: وَأُعد لهم ... وكأنه لم يرض لهم إلا أن تكون يده الكريمة هى القائمة بهذا الإكرام وذلك الإنعام ، وفى ذلك ما فيه مما لا يحيط به لفظ أو يدركه قول .

ثم انظر كيف وصف الأجر بأنه كريم ، والذى يوصف بالكرم الذى أعد الأجر ، ولكن وَصْفُ الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدى من الرب سبحانه الذى أعد الأجر بنفسه إلى الأجر حتى صار هو أيضاً كريما [1] .

بحيث يأتيهم عفواً صفوا من غير شوب نغص ، أو كدر فى شئ منه [2] ، ولعل فى هذا البناء اللفظى ما يبين فيه من جمال ، حيث إن بنيته العميقة تدل على بنائه على طريقة المجاز الذى يعمل فيه العقل أكثر مما تعمل فيه اللغة .

ولعل ما ذكر من مظاهر الإكرام التى بدأت بصلاة الحق سبحانه على هؤلاء بإنزال الرحمة وحط الخطايا ، وصلاة ملائكته عليهم بالاستغفار والدعاء مع إخراجهم من تيه الضلالة إلى نور الإيمان ويقين الإحسان ، ثم الطمأنينة التى تحتويهم ، والأمن الذى يعتريهم بسلام الله عليهم ، هو ما جعل سياق النظم ينهى رحلة هذا الإكرام التى شوهدت آثاره ، بإثباته قولا صريحا بعد ثبوته دلالة معنوية فهمت من النظم الكريم ، ومن ثم قيل: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ وكأن الإكرام قد اكتنف هؤلاء المؤمنين من أول الأمر إلى آخره ... فلله الفضل والمنة على كرمه وَمنّه ....

---

(1) تفسير الشعراوى ٧٥٠٤ ، بتصرف ، كتاب من الحاسب الآلى – المكتبة الشاملة – قسم التفاسير .

(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٤٦٩/٥ بتصرف – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

*****

أما الآية الثانية التى وصف فيها الأجر بأنه (كريم) فقد جاءت فى سياق الإنذار المؤدى إلى اتباع الحق والالتزام بجادة الطريق حيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس ١١] .

وسياق الإنذار هذا لم يكن مبدؤه تلك الآية ، بل بدأ بقوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس ٦] ... ، إلى أن قال: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس ١٠ ، ١١] .

وهنا لما تضمن قوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أن الإنذار فى جانب الذين حق عليهم القول هو وعدمه سواء ، كان ذلك قد يوهم انتفاء الجدوى من إنذار الغير ، ومن ثم أعقب هذه الآية ببيان جدوى الإنذار بالنسبة لمن اتبع طريق الحق وخشى رب الأرباب فقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [1] .

ومعلوم أن الإنذار إنما يكون إنذار ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة ، أما الكافر فالإنذار وعدمه معه سواء ، ومن ثم كان هذا مثالاً للخبر الذى يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال [2] .

([1]) ينظر: التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٢ .

([2]) ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ٥٤٢ ، تح/ محمد التنجى – دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

ولكن المراد من هذا الخبر تأكيد القول بأن الانتفاع بالإنذار ، لا يقع إلا من هؤلاء ، أما ما سواهم – وإن وجه الإنذار إليهم – فلا ينتفعون بموعظة ولا يجدى معهم إنذار أو تخويف ؛ لانطماس بصائرهم حتى صارت قلوبهم ليس لديها استعداد لهداية أو تقبل لوعظ ، فتراهم لا يهتدون ولو جاءتهم كل آية ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر ٣٥] .

ولما دل السياق على أن من تقبل هذا الإنذار وأدرك ما وراءه قد نفع نفسه ، تشوقت النفس لمعرفة كيف يكون جزاؤه ، ومن ثم جاءت (الفاء) دالة على سرعة ما لحقه من جزاء ، وما أدركه من ثواب فقيل: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقد أفادت هذه الفاء ترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية [١] .

وإنما كان لهؤلاء أجر من الله سبحانه ، لأنهم قدموا عملاً صالحاً تمثل فى اتباع الذكر ، وخشية الحق سبحانه وتعالى ، فالأجر فى مقابل العمل ، ولما كان هذا الأجر الذى وهب لهذا المنتفع بالإنذار هو الأفضل من نوعه ، والأنفس فى جنسه ، وصف بالكريم فقيل: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [٢] ، أى هنيئ لذيذ متواصل لا كدر فيه بوجه من الوجوه [٣] .

---

(١) روح البيان لاسماعيل حقى ٢٩٢/٧ بتصرف – دار إحياء التراث العربى – بيروت .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٥٤/٢٢ .

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٢٢٤٨/٦ ، تح/ عبد الرازق غالب مهدى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

وإنما كان لهم من الأجر الكريم ، لأنهم كانوا أكرم من غيرهم فى قبول داعى الهدى والحق ، حيث فتحوا لدعوته قلوبهم ، وأنسوا به ، واطمأنوا إليه واستجابوا لما يدعوهم إليه ، بينما رفض غيرهم استقباله ، والإنصات إليه أصلا ، فضلا عن كونهم تفكروا فيه ، وأنسوا به ، ومن هنا كان جزاؤهم من جنس عملهم .

ولا يخفى أن التنكير فى قوله سبحانه ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ له دلالة على الكثرة ، حيث تشملهم مغفرة لا تبقى من خطاياهم شيئاً وأجر كريم لا يطلبون وراءه من شئ ، ومن ثم حدد بعض العلماء هذا الأجر بأنه الجنة [1] ، لأنها لا كدر فيها بوجه من الوجوه وليس وراءها شئ يطلب أو هدف يؤم .

وبين قوله تعالى: ﴿ تُنذِرُ ﴾ وقوله: ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ محسن بديعى يسمى الطباق[2] ، الغرض منه بيان أن هؤلاء القوم الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمن ، كان أول أمرهم الإنذار الذى يخوفهم من اتباع الضلالة ، والانزلاق فى ظلمات التيه

---

(1) ينظر: جامع البيان فى تأويل القرآن لابن جرير الطبرى ٤٩٦/٢٠ ، تح/ أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، وورح البيان ٢٩٢/٧ ، وتفسير البغوى ٩/٧ ، تح/ محمد عبد الله النمر وآخرين – دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

(2) الطباق: هو أن يؤتى بالشئ وضده فى الكلام ، ينظر: كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص٣٠٧ تح/ على محمد البجاوى – محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، والعمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ٥/٢ ، تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، وتحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ص١١١ ، تح د/ حفنى محمد شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤١٦هـ /١٩٩٥م ، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى ابن حمزة العلوى ٣٧٧/٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

، ثم آل أمرهم بالالتزام بجادة الطريق ، وتصديق داعى الهدى الشفيق إلى البشارة التى تثلج صدورهم بنيل مرغوبهم ، وهى المغفرة والأجر الكريم [1] .

*****

والناظر فى الموضعين الأخيرين من وصف الأجر بكونه كريما ، يتبين له أنهما وردا فى سورة واحدة وفى سياق واحد ، وهو الحث على دفع الأموال إلى المحتاجين ، بالصدقة والإنفاق أو الإقراض ، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد ١١] ، ويقول: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد ١٨].

والدعوة إلى الإنفاق والحث على التصدق وبذل المال للمحتاجين ، وفى سبيل الله ومرضاته ، لها خط تعبيرى واضح فى سورة الحديد حيث يقول سبحانه: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [٧] ، ويقول ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [١٠] ، ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [١١] ... ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [١٨] ... ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [٢٤] .

فجو السورة إذاً هو جو الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ، وهذا بين واضح من خلال الآيات السابقة [1] .

([1]) ينظر: التحرير والتنوير ٢٢/٢٥٣ .

ومن مواضع الدعوة إلى الإنفاق قوله عز وجل: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

و (مَنْ) الواقعة فى صدر الآية الكريمة استفهامية ، كما هو شأنها إذا دخلت على اسم الإشارة أو الاسم الموصول ، و (الذى يقرض) خبرها ، أما كلمة (ذا) فهى معترضة بين المبتدأ والخبر لاستحضار حال المقرض ، وكأنه شخص قريب حاضر ، والاستفهام هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو مستعمل فى التحريض والحث على النفقة مجازا ، لأن من شأن المحرض على الفعل أن يبحث عمن يفعله ، ويتطلب تعينه ؛ لينوط به الفعل ويجازيه عليه [٢] .

والقول الكريم ندب بليغ من الله سبحانه إلى الإنفاق فى سبيله ، لأنه احترام من الحق – جل فى علاه – لحركة الإنسان فى التملك ، وكأن المولى عز وجل يريد أن يقول له: إننى سأحترم فكرك وحركتك ، وسأحترم عرقك وطاقتك وكل جوارحك التى سعت لاكتساب هذا المال ، فإن طلبت منه شيئا منه ، فلن أقول لك : أعطنى ما أعطيتك – لأن المال فى الحقيقة مال الله وهبه لعباده – ولكن أقول لك: أقرضنى إياه، فإن أقرضتنى فلا انتفاع لى به ، وإنما النفع يعود على أخيك المحتاج ، وأنا المتكفل برده عليك مرة أخرى ، مع مالك من المضاعفة والأجر على ذلك [٣] .

فإن استجاب صاحب المال إلى داعى الحق وأقرض ، فينبغى أن يكون قرضه حسنا ليس إلا ، والقرض الحسن هو الذى يكون بإخلاص النية لله تعالى ، ولو لم يكن

([١]) ينظر: لمسات بيانية للدكتور/ فاضل صالح السامرائى ٦٥٠ ، ٦٥١ ، كتاب من الحاسب الآلى – المكتبة الشاملة – قسم علوم القرآن .

([٢]) ينظر: التحرير والتنوير ٣٧٧/٢٧ .

([٣]) تفسير الشعراوى ١٣٠٢ بتصرف .

لله سقط عنه الحسن ، وليس فيه أجر أصلا ، ثم لابد أن يكون هذا القرض عن طيب نفس وسخاء طبع ، مع بشاشة فى وجه المستقرض ، وخلو الحال من كل ما يوصل إلى مَنٍّ أو تكدير المستقرض، استجابة لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة ٢٦٢] ثم على المقرض أن يتخير مالاً حلالاً طيباً ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة ٦٧] (١) .

وقد فُسر الطيب بالجيد دون الحلال ؛ لأن الحل استفيد من الأمر بالإنفاق ، لأن الإنفاق من الحرام لا يؤمر به ، ولقوله بعده: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ والخبيث هنا هو الردئ غير المرغوب فيه – مع كونه حلالاً – وعلى ذلك فالمعنى: أنفقوا مما يستطاب مما كسبتم (٢) .

والمستطاب من الأموال المكتسبة هو أنفُسها وأكرمها على أصحابها ، والذى طابت نفسه بأن يخرج نفائس أمواله وكرائمها عليه ، ليساعد بها من هدته الحاجة وكدته الفاقة ، وينفس عنه كربته ، ويمحو بها شدة مؤنته ، فذلك رجل كريم، لأنه لو كان بخيلا لما تصدق أو أقرض مثل هذا المال ، وكأنه ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران ٩٢] ، طمعاً فى الجزاء الأوفى على ذلك ، ومن ثم استحق أن تكون مكافأته من جنس ما يحمل فى نفسه من هذا الكرم ، وكان له من وراء ذلك ما سطره الحق فى كتابه بقوله: ﴿ فيضاعفه ﴾ .

---

(١) ينظر: لمسات بيانية ١٩٥ .

(٢) روح البيان ٣٥١/١ بتصرف .

أى (فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله ، " وله أجر كريم " أى وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم مرضى فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، وفى ذلك إشارة إلى أنه زائد فى الكم بالغ فى الكيف) [1] .

(وإنما وصف الأجر بكونه كريما ؛ لأنه هو الذى جلب ذلك الضعف ، وبسببه حصلت تلك الزيادة ، فكان كريما من هذا الوجه) [2] .

وكيف لا يكون للمقرض " أجر كريم " وهو يتعامل مع أكرم الأكرمين جل فى علاه؟

ومما يؤيد هذا الكرم الإلهى ، ما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ حيث قال: " رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، فقلت يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال: لن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة " [3] .

ومن هنا حسن وصف الأجر بأنه كريم ، لأن به المضاعفة والزيادة على ما أخرج المقرض ، وهذا من فضل الله وكرمه .

وإذا كان النظم الكريم قد ندب فى الآية السابقة إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وبين ما أعد لمن استجاب ولبى تلك الدعوة ، فإنه عاد وأكد هذا الأمر مرة ثانية فقال: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وما

---

(1) روح المعانى ١٧٤/٢٧ .

(2) التفسير الكبير للرازى ١٩٣/٢٩ .

(3) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ ، تح/ محمد فؤاد عبد الباقى ، رقم الحديث ٢٤٣١ – دار الفكر – بيروت ، وينظر: شعب الإيمان للبيهقى ٢٨٥/٣ ، ط أولى ١٤١٠هـ – دار الكتب العلمية – بيروت .

ذلك إلا ليؤكد لهم أنهم (لا يتعاملون فى هذا مع الناس ، إنما هم يقرضون الله ، ويتعاملون مباشرة معه ، فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفاً ، وأن له بعد ذلك كله أجراً كريما) [1] .

وتصدير الآية الكريمة بأم أدوات التوكيد (إنَّ) للدلالة على أهمية ما يأتى بعدها من خبر ، وإيثار كلمة " المصدقين " هنا على المتصدقين حيث لم يقل النظم الحكيم: إن المتصدقين والمتصدقات ، لأن كلمة " المصدقين " فيها تضعيفان، تضعيف فى الصاد وتضعيف فى الدال ، أما " المتصدقين " ففيها تضعيف واحد يوجد فى الدال ، إذا "المصدقين " تفيد المبالغة والتكثير فى أمر الصدقة من حيث المعنى العام ، وإيثارها هنا دون " المتصدقين " لكونها تتناغم وتتناغى مع الخط العام فى سورة الحديد الذى يدعو فى أكثر من موضع إلى كثرة الإنفاق والتصدق والإقراض – كما مر من ذى قبل– ومن ثم لما بالغ هؤلاء فى أمر الصدقة والإنفاق ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، ابتغاء وجهه وطلبا لمرضاته، بولغ لهم فى الثواب والإكرام فقيل ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [2] .

وقد عبر بالمفاعلة فى المضاعفة فقيل: (يُضاعف) لإفهام أن تلك الكثرة فى الثواب مما لابد منها ، لأن من أقرض إنما أقرض الحليم الكريم ، وهو سبحانه لا يرضى فى الخير إلا بالفضل وزيادة ، وقد بنى الفعل للمجهول للدلالة على باهر العظمة ، اللازم عن كونه بغاية السهولة ، مع ما لهم من الأجر الكريم الذى لا كدر

([1]) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب٦/٣٤٩٠ – دار الشروق – الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ .

([2]) ينظر: لمسات بيانية ، ص٦٥٠ .

فيه بانقطاع أو قلة ، لأنهم كانوا كرماء فلم يكدروا صدقتهم بالمن والأذى ، فالجزاء من جنس العمل [1] .

(والله أعلم)

(1) نظم الدرر ٧/٤٥٠ بتصرف .

المبحث الثانى
الأجـــر الحســـن

والحَسَنُ فى اللغة: ضد القبيح [١] .

وهو عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه ، وأكثر ما يقال فى تعارف العامة فى المستحسن بالبصر ، يقال: رجل حسن ، وامرأة حسناء [٢] .

هذا وقد وصف الأجر بكونه حسنا فى آيتين كريمتين من الذكر الحكيم هما قوله تعالى: ﴿ قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الكهف ٢] ، وقوله جل شأنه ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح ١٦] [٣] .

*****

أما قوله سبحانه فى سورة الكهف ﴿ قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ فقد جاء بعد وصف الكتاب المنزل على خير البشر ﷺ بأنه متصف بصفات الكمال ، حيث قال سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ ..... إلخ الآية ﴾ .

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ١٥٦/٢ – دار صادر – الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ .

(٢) المفردات للراغب ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) المعجم المفهرس ، ص٢٤٨ .

ومعنى قوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ أنه فى غاية الاستقامة ، فلا تناقض ولا اختلاف فى معانيه ، ولا عِيٌّ فى تراكيبه ومبانيه [1] .

ثم زاد هذه الاستقامة تأكيدا بقوله: (قيما) أى مستقيماً ، ليضيف صفة أخرى إلى هذا الكتاب المنزل ؛ وذلك لأن من معانى القيم المهيمن على ما دونه ، كما تقول: فلان قيم على فلان ، أى: مهيمن عليه وقائم على أمره ، فالقرآن إذاً لا عوج فيه ، وهو مهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها لكونه جاء مفصلاً وموضحاً لكل شئ بما لا يدع مجالا للاختلاف حوله ، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل ٨٩] ، ومن هنا جاءت هيمنته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ثم يقول سبحانه: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ وهذه هى العلة من إنزال الكتاب ، والإنذار: التخويف من شر قادم ، والمنذر هنا هم الكفار ، لأنه لا ينذر بالعذاب الشديد إلا الكفار ومن على شاكلتهم ، ولكن الملاحظ هنا أن سياق الآية لم يذكر أولئك المنذرين من الكفار ، بل اكتفى بذكر العذاب دونهم فقال: ﴿لينذر بأساً شديداً ﴾ ، وما ذاك إلا ليترك مجالاً للملكه العربية والذهن أن يعمل ، وأن يستقبل القرآن بفكر متفتح وعقل يستنبط، وترى النظم الكريم قد ضخم هذا العذاب المنذرين به ، ووصفه بالشدة فقال ﴿بأساً شديداً ﴾ ، ثم زاد من ضخامته وقسوته بأنه من عند الله تعالى فقال ﴿ من لدنه ﴾ ومعلوم أن العذاب يتناسب مع المعذب وقوته فإن كان من عند الله فلا طاقة لأحد به ، ولا مهرب له منه ، ثم يقول سبحانه ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ ، والبشارة تكون بالخير المنتظر فى المستقبل – كما أن الإنذار تخويف بشر فى

([1]) البحر المحيط ٤١٢/٧ بتصرف ، تح/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

المستقبل – ومن الملاحظ أن الحق سبحانه فى أمر البشارة ذكر المبشرين بها فقال: ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار فى أمر الإنذار ، وما ذاك إلا رحمة من الله بنا حتى فى أسلوب الإخبار والتعبير [1] .

ولا يخفى ما فى القول الكريم من الاحتباك ، حيث حذف المنذرين لثبوت المبشرين الدالين عليهم [2] .

والناظر إلى آية سورة الكهف يرى أنها جاءت فى سياق يغلب عليه ظل الإنذار الصادر فى التعبير كله ، فهو يبدأ به على وجه الإجمال فيقول: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ ﴾ ثم يعود إليه على وجه التخصيص، فيقول: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ [الكهف ٤] ، وبين الإنذارين تبشير للمؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ بهذا القيد الذى يجعل للإيمان دليله العملى الظاهر المستند إلى الواقع الأكيد ، ثم يأخذ السياق فى كشف المنهج الفاسد الذى يتخذه الكفار للحكم على أكبر القضايا وأخطرها ، وهى قضية العقيدة، فيقول عمن يقولون إن لله ولداً: ﴿ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا

---

(1) ينظر: تفسير الشعراوى ٥٣٥٨ .

(2) الاحتباك هو: أن يحذف من الجملة الأولى ما ثبت نظيره فى الثانية ، ومن الثانية ما ثبت نظيره فى الأولى ، ينظر: بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، تح/ حفنى محمد شرف ، نهضة مصر – الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ ، والمنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع لأبى محمد القاسم السجلماسى ، ص١٩٥ وما بعدها ، تح/ علال الغازى مكتبة المعارف – الرباط – المغرب – الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، وينظر: شرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان للسيوطى ، ص١٣٣ ، مطبعة الحلبى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩هـ .

بِآبَائِهِمْ ﴾ [الكهف٥] فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم هكذا جزافاً ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [الكهف ٥] (١) .

إذاً فسياق الآيات إنذار وتخويف ، ولكن النظم الكريم لما أراد أن يبعث الطمأنينة فى قلوب أولئك المؤمنين – الذين ترجموا إيمانهم بالعمل الصالح والمداومة على الطاعة – جاء وسط هذا الإنذار ببشارتهم على الإيمان والعمل الصالح ، وأخبر أن لهم على هذا العمل أجرا ، ثم وصف هذا الأجر بالحسن ، والمتأمل فى النظم الكريم يرى أن الوصف بالحَسَنَ هنا هو الأنسب والأليق فى مكانه لما فيه من تهدئة الروع وإزالة الفزع ، وذلك حتى لا يكون لأهل الإيمان وحشة أو تخوف من الأجر الذى ينتظرهم ، لما علموا من سابق عهد بالذكر الحكيم أن البشارة فيه قد تأتى بغير ما يسر المبشرين أحياناً ، وذلك على سبيل التهكم والسخرية ، كما فى قوله : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران ٢١] .

ولكن إذا ما علموا أن الأجر الذى يبشرون به حسن فى ذاته ، طيب فى نفسه – بصرف النظر عن كنهه وماهيته – اطمأنت قلوبهم بأنهم بعيدون عن دوائر الإنذار والتخويف التى تراءت فى السياق ، وبقيت البشارة على حقيقتها تملأ أسماعهم سروراً ، وتتلألأ فى قلوبهم حبورا .

وكأنى بالنظم الكريم – ولله المثل الأعلى – وهو يعرض تلك الإنذارات وما بداخلها من بشارة المؤمنين ، يصور لنا مشهداً محسوساً ملموساً فى حياتنا اليومية ، يصدق على معلم يؤدب تلاميذه المقصرين ويشتد فى تعنيفهم وتقريعهم ، فإذا ما أحس أن الملتزم من جملة تلاميذه ، قد اعتراه شئ من الخوف والفزع ،

(١) فى ظلال القرآن ٤/٢٢٥٩ – ٢٢٦٠ بتصرف .

خشية أن يناله شئ مما تراه عيناه ، تراه – أى المعلم – قد ربت على كتفه وطمأنه قائلاً : أنت لست منهم ؛ لأنك مجتهد ولك منى مكافأة ، فبقول المعلم لتلميذه النجيب: أنت مجتهد ولك منى مكافأة ، تراه قد بعث فى نفسه الطمأنينة والإيناس ، وانتزع منه الخوف والقلق ، بصرف النظر عن نوع المكافأة وما تنطوى عليه ، وهكذا فعل النظم الكريم حين بشر المؤمنين وسط إنذار الكافرين ، حيث انتزع بتلك البشارة جذور الخوف والفزع من صدورهم ، وغرس بذور الطمأنينة والإيناس فى قلوبهم .

*****

أما قوله سبحانه فى سورة الفتح: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١٦] .

فهو بيان لحال الذين تخلفوا عن الحديبية ، بأنهم سيمتحنون بأمر شاق يحدثه الله – تبارك وتعالى – ألا وهو قتال قوم معروفين بشدة البأس فى الحرب ، مع الشجاعة والمكر والدهاء ، للتمييز بين الخلص وغيرهم ، فإن أطاعوا الداعى لذلك ولبوا نداء الجهاد ، فلهم الأجر الحسن دنيا وأخرى ، وإن تولوا عن قبول دعوته عصياناً منهم – كما فعلوا فى الحديبية – فسوف يلحقهم عذاب أليم ينسيهم نعيم الحياة وسرورها [١] .

والأمر فى قوله: (قل) لرسول الله ﷺ للإشعار بأنه ﷺ فى موضع القوة لأن السورة سورة الفتح وفى وصف النظم الكريم لأولئك بقوله: (المخلفين) إشعارٌ بأن

([١]) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ٢٠١/٧ .

وصف التخلف أصبح شعاراً يعرفون به ويميزهم عن غيرهم وفى ذلك من اللوم والذم والعتاب ما فيه ، والتعبير بقوله: (المخلفين) دون المتخلفين يُلقى بظلل من الإهمال على هذه الفئة ، كما لو كانت متاعاً يُخَلّف ، أو هَمَلاً يترك فليس ثمة من فائدة ترتجى منه حتى يحرصوا على أن يكون معهم [1] .

وجاء الفعل (تدعون) مبنياً للمجهول ، لأن الغرض الأمر بامتثال الداعى وهو ولى أمر المسلمين بقرينة قوله بعد: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الفتح ١٧] ليعلم أن دعوة خلفاء رسول الله ﷺ من بعده ترجع إلى دعوة الله ورسوله ... والقوم أصحاب البأس الشديد قوم من العرب ؛ لأن النظم الكريم قال: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ ولم يذكر الجزية ، لأنت الجزية لا تدفع من العرب بل من غيرهم [2] ، والسين الداخلة على الفعل " تدعون " لتأكيد حصول الدعوة فى المستقبل ، كما فى قوله ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ ﴾ [التوبة ٧١] .

فإن استجاب هؤلاء المدعوون إلى قتال أصحاب البأس الشديد ، كان لهم على تلك الاستجابة أجر من الله تعالى ؛ لأنهم قاموا بعمل يستحقون عليه أخذ الأجر وهو القتال .

ولكن أى نوع من الأجر يستحقه هؤلاء ؟ الناظر فى النظم الكريم يرى أن الحق قال فى شأنهم: ﴿ قل للمخلفين ﴾ والمخفلون قوم وقعت منهم معصية قبل ذلك ، حيث تخلفوا بدون عذر شرعى عن الجهاد ، فهم ليسوا ممن قال الله فيهم بعد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .... ﴾ [الفتح ١٧] .

---

(١) ينظر: أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير لأبى بكر الجزائرى ١٠٤/٥ ، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة – ط الخامسة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٧١/٢٦ .

إذاً هؤلاء أصحاب معصية سطرت فى سجل حياتهم ، وعرفها القاصى والدانى، ومع ذلك فقد أراد الله أن يطمئنهم بأنهم لم يخرجوا بهذا التخلف من دائرة الإسلام ، ولم يخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ، بل بقى هناك أمل وما زالت هناك فرصة قائمة يثبتون بها حسن إسلامهم ، وثباتهم على الدين الحق ، وتمثل هذا الأمل وتلك الفرصة فى الاستجابة لداعى الجهاد إذا دعاهم مرة أخرى ، فإن فعلوا فلهم على ذلك الأجر الحسن من الله تعالى .

وإنما خص النظم هنا هذا الأجر بكونه حسناً ، لأنه إن كان فى الدنيا فإما أن يكون نصراً وغنائم تعود عليهم من هذا الجهاد .

وإن لم يكن هناك نصر وغنائم فقد محيت عنهم صفة التخلف ، وتحلوا بطيب السمعة ، وظفروا بحسن الصيت بين غيرهم، وهذا فيه من الحسن ما فيه .

وإن كان هذا الأجر ينتظرهم فى الآخرة فوصفه بالحسن يجعلهم يطمئنون لما هم قادمون عليه ، لكونهم يعلمون أن ذنب التخلف قد محى ، وبدل بما هو أفضل وأحسن . (والله أعلم)

المبحث الثالث

الأجـــر الكبيـــر

الكبير: الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر ، يقال: هو كبير وكُبَار وكُبّار [١] ، واستكبر الشئَ: رآه كبيراً وعظُم عنده [٢] .

وقد ورد وصف الأجر بكونه كبيراً فى خمس آيات من الذكر الكريم هى قوله تعالى:

١- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود ١١].

٢- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء ٩] .

٣- ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [فاطر ٧] .

٤- ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد ٧] .

٥- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك ١٢] [٣] .

*****

(١) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ١٥٣/٥ ، تح/ عبد السلام هارون- دار الفكر ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م .

(٢) لسان العرب ١٢٥/٥ .

(٣) المعجم المفهرس ٦٩٤ .

والناظر إلى تلك المواضع الخمس يرى أنها تشترك جميعها فى أمر واحد يربط بين بعضها البعض، ألا وهو عمل الصالحات بمفهومه الواسع ، ثم يَبِين له أنه قد ارتبط بهذا الأمر بعض الأمور الخاصة التى تندرج تحت عمل الصالحات ، مثل: الصبر والإنفاق والخشية وكلها أمور لها بالغ الأثر فى جعل الأجر عليها كبيراً – كما سيتضح فيما بعد – .

فأول دواعى وصف الأجر بكونه كبيراً هو عمل الصالحات المتلبس بالصبر وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

والاستثناء الذى صدرت به الآية الكريمة " إلا ... " استثناء من جنس الإنسان الوارد فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ... ﴾ [هود ٩– ١١] .

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل كل البشر ينطبق عليهم الحكم الصادر فى الآيتين السابقتين: حكم اليأس والكفر عند الشدائد ، أو الفرح والفخر عند العطاء ، دون تذكر واهب النعم سبحانه وتعالى – ولكن هذا الاستثناء جاء ليطمئن الذين صبروا من المؤمنين على ما قد يصيبهم فى أمر الدعوة فى ذواتهم أو شئونهم بتقدير منه سبحانه لحكمة يعلمها جل فى علاه [١].

والمراد بـ" الذين صبروا " أولئك المؤمنون بالله حقاً ، وإنما أوثر وصف " صبروا " دون : آمنوا ؛ لأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار فى قوله : " إنه ليؤس

(١) تفسير الشعراوى ٤١٤٨ بتصرف.

كفور " ودل الاستثناء على أنهم متصفون بضد صفات المستثنى منهم ، وفى هذا تحذير من الوقوع فيما يماثل صفات الكافرين على اختلاف أحوالهم [١].

وإنما وصف النظم الكريم الأجر فى هذه الآية بكونه كبيراً لما سبقه من بعض المرشحات التى كانت بمثابة التوطئة والتمهيد لأن يكون كبيراً ، وذلك بين واضح فى قوله تعالى : " إلا الذين صبروا " حيث إن الصبر على الشدائد وتحمل المكاره ونزول البلايا أمر له من الأجر عليه ما لا يعلم مقدار كنهه إلا الله – سبحانه وتعالى – بدليل قوله –جل شأنه – فى كتابه الكريم : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ١٠] وغير الحساب هذا دليل على أنه كبير جدا ، بحيث يفوق الحصر ويخرج عن دائرة العد " لأن كل شئ يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ومثوبة جليلة ، تقتضى أن على كل راغب فى ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير ، أن يتوفر على الصبر ويلزم نفسه بزمامه ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيراً قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع " [٢].

ومن ثم يتسنى للصابر بعد ذلك أن يفوز بهذا الأجر الكبير ، ويظفر بذلك العطاء الوفير ، الذى لا يعلم مقداره إلا اللطيف الخبير ...

ثم رشح كون الأجر كبيراً فى تلك الآية الكريمة قوله تعالى : " وعملوا الصالحات " حيث أطلق النظم الكريم شأن الصالحات ، دون أن يقيدها بشئ من أفعال الصلاح ، مما يجعل أمر الصالحات هنا يصدق على كل قول أو فعل يرتضيه الحق – سبحانه وتعالى – من عباده المؤمنين ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/١٢ بتصرف.

(٢) فتح القدير للشوكانى ٤٤١/٤ – مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٠هـ .

والصدقة والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... إلى غير ذلك مما يحمل معنى الصلاح والتقوى والهدى ، ولا شك أن هذه الأعمال تقتضى بوعد الله سبحانه أجراً كبيراً ، وذلك لأن لكل عمل منها يقوم به المؤمن أجرا معينا يثيب الله عليه من يقوم به ، فإذا أضيف أجر هذه إلى تلك وأجر تلك إلى هذه نتج عن ذلك أجر كبير لا يعلم كمه وكيفه إلا الله – تعالى شأنه – وهذا على مقتضى عدل الله سبحانه الذى وعد من عمل صالحا بأن له على ذلك أجرا أفضل مما عمل ، بدليل قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل ٩٧] فإذا أضيف إلى هذا العدل جانب الفضل منه سبحانه وتعالى فى توفية الأجور ، لرأينا أجرا كبيرا وعطاء وفيرا سرنا أمره ، وعظم علينا حصره ، بدليل قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر ٤٠ ... إذا فقد بان واتضح أن الصبر وعمل الصالحات كان لهما كبير الأثر فى وصف الأجر بكونه كبيرا .

ومن هذا الشأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ الإسراء ٩.

والآية الكريمة جملة موقعها استئناف ابتدائى عاد بها الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة الكريمة ، وهو تأييد النبى ﷺ بالمعجزات – حيث بدأها بقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء ١] – وإيتائه الآيات والتى أعظمها آية وأجلها معجزة القرآن الكريم ... وتصدير الجملة بأم أدوات التوكيد فى قوله : " إن هذا القرآن " مراعى فيه حال الذين لم يذعنوا إلى القرآن ولم يؤمنوا به ، ومراعى

فيه كذلك حال المؤمنين ؛ ليبعث على مزيد الاهتمام منهم لما هو بعده وعلى ذلك فالتوكيد مستعمل فى معنييه : دفع الإنكار والاهتمام [١].

والفعل " يهدى " فى قوله : " يهدى للتى هى أقوم " محذوف المفعول للدلالة على العموم [٢] والمعنى: يهدى الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم ، وفى ذلك دليل على احتوائه على كل ما يصلح لهداية البشر ، على اختلاف أهوائهم وتعدد مشاربهم، والتى هى أقوم صفة لموصوف محذوف ، تقديره : للملة التى هى أقوم ، أو الطريقة التى هى أقوم ، والكلام فى تقدير المحذوف يحتمل أوجها أخرى حسب ذوق المتلقى ، وأيما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف ، لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفتقد مع إيضاحه ، هذا فضلاً عن الإيجاز والاختصار الذى كسيت به الجملة [٣].

وإذا كان القرآن يهدى للتى هى أقوم ، وإلى الاعتقاد الأصوب لزم عن ذلك أن يقود إلى عمل الصالحات ، التى من لازمها وواظب عليها ، وجب أن يظهر له من تلك المواظبة وهذا الصلاح أثر ، وهذا الأثر هو البشارة بالأجر الكبير من الله

---

(١) التحرير والتنوير ٤٠/١٥ بتصرف

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ١٢١ ، ومختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى ١٠٢/١ ، والإيضاح فى علوم البلاغة ١٠٤/١ ، والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ٩١/٢ ، تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥م ، ومفتاح العلوم للسكاكى ١٤٣ ، الطبعة الأولى المطبعة الأدبية بمصر ، والأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لإبراهيم بن محمد بن عربشاه – عصام الدين الحنفى ٥٢٢/١ ، تح/ عبد الحميد هنداوى ، دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشرى ٦٠٨/٢ ، تح/ عبد الرازق المهدى – دار إحياء التراث العربى – بيروت .

القدير ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وذلك لأن الطريق الأقوم لابد أن يفيد الربح الكبير والنفع الكثير [1].

ويلاحظ هنا أن الحق – سبحانه – وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يأت بصيغة أفعل التفضيل منها ، فلم يقل: أن لهم أجرا أكبر ، وذلك لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، لكون كبير مقابلها صغير ، ووصف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفى هذا دلالة على عظم الأجر الممنوح من الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ، أما لو قال: أن لهم أجرا أكبر ، لعلم أن غيره كبير ، وهذا غير مراد ، لكون الحق سبحانه أراد أن يفرد هؤلاء بأجر لا يبلغه أحد سواهم ممن هم فى درجتهم ، إذاً فاختيار القرآن لوصف الأجر بالكبير أبلغ وأحكم [2].

وكما كان لعمل الصالحات أثر بين فى وصف الأجر بكونه " كبيرا " فى الآيتين السابقتين كان له الأثر نفسه فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

وواضح أن الآية بنيت على المقابلة بين الفريقين ، ومصير كل منهما المترتب على عمله الذى لازمه وفارق الحياة عليه فـ ﴿ الذين كفروا ﴾ أى: ثبتوا على الكفر بما وجب به الإيمان وأصروا عليه (لهم) بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان (عذاب شديد) معجل، ومؤجل ، فمعجله تفرقة قلوبهم ، وانسداد بصائرهم ... ومؤجله عذاب الآخرة وهو مالا تخفى شدته وصعوبته (والذين آمنوا) أى:

---

(1) ينظر: التفسير الكبير للرازى ١٢٩/٢٠ .

(2) تفسير الشعراوى ٥١٢٠ بتصرف.

ثبتوا على الإيمان واليقين (وعملوا الصالحات) أى: الطاعات الخالصة تحصيلا لزيادة نور الإيمان (لهم) بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ... (مغفرة) عظيمة ، وهى فى المعجل ستر ذنوبهم ... وفى المؤجل محوها من ديوانهم ، ولولا ذلك لهلكوا ، (وأجر كبير) لا غاية له وهو اليوم سهولة العبادة ودوام المعرفة ... وفى الآخرة تحقيق المسؤول ونيل ما فوق المأمول " [1].

*****

أما الموضع الثانى الذى كان له كبير الأثر فى وصف الأجر بكونه كبيرا فهو الإنفاق فى سبيل الله ابتغاء مرضاته جل فى علاه ، وفى ذلك يقول سبحانه ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد ٧]

وقد صدرت الآية الكريمة بالأمر بالإيمان به سبحانه ، وبرسوله ﷺ لأن الإيمان هو الأساس الذى يقيم عليه المسلم أمر دينه ، فبدونه لا قيمة لما يعمله من الصالحات أو من فضائل الأعمال ، لأنها حينئذ تكون أعمالاً مبتورة لا ركيزة لها ، ولا نفع للمرء من ورائها ، بدليل قوله – تعالى – ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور ٣٩] ، وقوله: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم ١٨] ، وما جاء فى حديث السيدة عائشة – رضى الله عنها – يزيد الأمر تأييداً فى كون الكافر لا ينتفع من أعماله الصالحة فى الآخرة بشئ ، حيث قالت رضى الله عنها: "

([1]) روح البيان ٧/ ٢٤٩ .

قلت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ، قال ﷺ : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين " [1] .

ولما كان الإيمان بالله ورسوله أساس التوحيد والقضية الإيمانية ، وكان الإنفاق فى سبيل الله وجهاً من الوجوه التى تترجم هذا الإيمان ، وتبين حقيقة تمكنه من القلوب = رغب سبحانه عباده فى هذا الأمر فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعنى أن الأموال التى معكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة ، وإنما أنتم بمنزلة الوكلاء والنواب ، فإذا علمتم ذلك هان عليكم أمر الإنفاق منها كما يهون على من ينفق من مال غيره إذا أذن له فيه ، ومع ذلك لم يرد الله سبحانه وتعالى –منهم أن ينفقوا كل ما آتاهم ، بل أراد منهم بعضا مما أعطاهم ومنحه إياهم ، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أى من بعض ما أتاكم من فضله وما وهبه لكم من خيره [2] .

وجئ بالموصول فى قوله: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ مع لفظ الاستخلاف دون أن يقال مثلا: وأنفقوا من أموالكم ، أو مما رزقكم الله ، لما فى صلة الموصول من التنبية على غفلة السامعين عن كون المال لله ، وإنما جعل الله الناس كالخلائف عنه فى التصرف فيه مدة ما ، فينبغى عليهم إذا أمرهم بالإنفاق منه على عباده أن يمتثلوا

([1]) صحيح ابن حبان ٢/٤٠ ، تح/ شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

([2]) ينظر: الكشاف ٤/٤٧١ .

هذا الأمر ، كما يمتثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شئ منه إلى من يعينه له [١] .

ولما أمر بالإنفاق ووصفه بما سهله عليهم – من كون المال مال الله وليس مالهم – سبب عنه ما يرغب فيه ويجعل السامعين يقبلون عليه فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [٢] .

وهذا وعد فيه من المبالغات ما لا يخفى ، حيث جعل الجملة اسمية ، وكان الظاهر أن تكون فعليه فى جواب الأمر السابق ، بأن يقال مثلا: آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه تعطوا أجرا كبيرا ، وأعاد ذكر الإيمان والإنفاق حيث قال: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا ﴾ دون أن يقول مثلا: فمن يفعل ذلك فله أجر كبير، للتأكيد على أهميتهما وعلو منزلتهما ، ثم زاد من فخامة هذا الأجر أن جاء به منكرا ، مع وصفه بكونه كبيرا ، وفى ذلك دلالة على عظم أمره وجلالة قدره [٣] .

وبدهى أن يكون لمن آمن وأنفق استجابة لأمر الله تعالى أجر على ذلك ؛ لأنه قام بعمل أخروى يستحق عليه الأجر من الله تعالى بمقتضى عدله – عز وجل –

ووصف الله الأجر فى مقام الإنفاق بكونه كبيرا ؛ لأن صاحب المال دائما ما يتطلع إلى الربح والزيادة ، فلا تراه ينفق مالاً أو يستعمله فى شئ ، إلا وهو يطمع فى أن يعود عليه أضعافاً مضاعفة ، وتطمح نفسه إلى أن يأتيه من وراء ما

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ /٣٩ بتصرف .

(٢) ينظر: نظم الدرر ٤٣٩/٧ .

(٣) ينظر: روح المعانى ١٦٩/٢٧ .

أخرجه مال وفير وعوض كبير ، ولا يقف تطلعه عند عودة ما أنفقه فقط ، بل الربح الربح ، والزيادة الزيادة ، وهذا من شأن الإنسان وديدنه ، وفى طبعه وعادته ... ومن ثم لما علم الله منه ذلك وعد من أنفق مالاً فى سبيله وابتغاء مرضاته بأن يعوضه عنه أجرا كبيرا ، حتى تطمئن نفسه إلى أن التجارة مع الله رابحة لا محالة ، فلا خسارة تحتمل، ولا ضياع للمال ينتظر .

ومما سبق يتبين أن الحق – سبحانه – لما علم من خلقه حبهم الشديد للمال – مصداقاً لقوله – تعالى – ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ [الفجر ٢٠] – أراد أن يهون على من يأمرهم بالإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته أمر إنفاقهم وذلك بأمور ، منها:

أولاً: أعلمهم أن المال الذى بأيديهم وفى حوزتهم ليس – فى الحقيقة – مالهم، وإنما هو مال الله ساقه إليهم " ويسر لهم سبيل الوصول إليه ، ومكنهم من التصرف فيه ؛ لينتفعوا به ، ويقيموا به أمر معاشهم – وذلك على سبيل العارية التى من الممكن أن تسترد فى أى وقت شاء صاحبها – ومن ثم إذا أنفقوا من هذا المال شيئاً فهم لا ينفقون من مالهم ، وإنما من مال الله الذى آتاهم ، فلا حاجة إذاً إلى البخل والشح به .

ثانياً: أنه سبحانه وتعالى ضمن لهؤلاء المنفقين الذين ينفقون من مال الله لله أن يخلف عليهم ما أنفقوا ، وقد سطر ذلك فى كتابه الكريم ؛ ليكون باعثا على الطمأنينة وعدم الخوف من تلف المال أو ضياعه فيما لا يعود عليهم منه نفع ، فقال جل فى علاه: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ ٣٩] ثم أوحى على لسان نبيه ﷺ ما يؤكد هذا الإخلاف وذلك العوض ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: " قال رسول الله ﷺ : " ما من يوم يصبح فيه العباد إلا

وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً " [1] .

ثالثاً: وعدهم بعد الإخلاف عليهم أن يثيبهم على إنفاقهم من مال الله أضعافاً كثيرة ، فقال فى كتابه العزيز: ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن ١٧] ، وقال: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة ٢٤٥] ، ومن ذلك قوله: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٦١] .

وما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ يبين إلى أى مدى بلغ حجم العوض الذى تكفل الرحمن برده على من أنفق وتصدق فى سبيله وابتغاء مرضاته ، حيث قال ، قال: رسول الله ﷺ : " مَنْ تَصدَّق بِعدل تمرةٍ منْ كَسْب طيب ولا يَصْعد إلى الله إلا الطّيبُ – فإنَّ الله يَتقبلها بيمينه ، ثم يُربيها لصاحبها كما يُربى أحدُكم فَلُوّه حتى تكون مثلَ الجبل " صدق رسول الله ﷺ [2] .

وإنما ضرب رسول الله ﷺ المثل هنا بالفلو: أى: المهر الصغير ؛ لأنه يزيد زيادة بينة .. فما أجله من كرم وما أعظمها من إثابة ، حيث أعطى – سبحانه – المال ووعد من أنفق منه بالأجر الكبير على ذلك ، فله الفضل ، وله المنة .

*****

([1]) صحيح البخارى ٥٢٢/٢ ، تح/ مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – ط الثالثة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م ، وينظر: شعب الإيمان للبيهقى ٤٤٣/٧ ، تح/ محمد السعيد بسيونى زغلول ، دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى ١٤١٠هـ .

([2]) صحيح البخارى ٢٧٠٢/٦ رقم الحديث ٦٩٩٣ .

أما الموضع الثالث الذى وصف فيه الأجر بكونه كبيراً فهو موضع الخشية من الله تعالى ، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك ١٢] .

وهذه الآية اعتراض [١] يفيد استئنافاً بيانياً جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة ، حيث ذكر فيما سبق هذه الآية ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية الله من العذاب الأليم فقال: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك ٦– ١١] .

ومن ثم أعقب هذا بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والأجر ، للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال الضالين المكذبين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [٢] .

وقد صدر النظم الكريم هذه الآية بأم أدوات التأكيد وهى: " إنَّ " للتأكيد على أن هذا الفريق القادم ذكره مغاير للفريق السابق فى وصفه وجزائه ، ومعنى ﴿

([١]) الاعتراض: هو أن يذكر فى البيت أو الكلام جملة معترضة لا تكون زائدة بل يكون فيها فائدة ، ينظر: خزانة الأدب للحموى ٢/٢٨٠ ، والبديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ ١٣٠ ، تح د/ أحمد أحمد بدوى – حامد عبد المجيد – مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٣٩٤ .

([٢]) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/٢٩ .

يخشون ربهم ﴾ أى: (يخافونه خوفاً أرق قلوبهم) [١] ، وفى التعبير عن هذا الفريق المؤمن بالموصولية فى قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ دون أن يقال مثلا: إن الخاشين ربهم بالغيب ، للدلالة على أنهم راسخون فى الخشية بحيث لا تنفك عنهم ولا ينفكون عنها، وذلك من باب المدح لهم كما هو بين من الإيماء إلى وجه بناء الخبر [٢] ، وهذا ما يفهم من التعبير بالموصول ومقتضى معلومية الصلة[٣] .

وإنما ذكر النظم الحكيم لفظ الخشية فى وصف المؤمنين دون لفظ الخوف فقال: إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، دون: إن الذين يخافون ربهم بالغيب ؛ لأن الخشية تكون من عظم المخشى ، وإن كان الخاشى قوياً ، وأكثر ما تكون إذا كان الخاشى على علم بمن يخشاه ، ولذلك خص بها العلماء فى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ [فاطر ٢٨] ، أما الخوف فيكون من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً [٤] .

ومن ثم فهى أعلى رتبة من الخوف ولذلك استحقوا الوصف بها ، وفى التعبير بالمضارع فى قوله: ﴿ يخشون ﴾ للدلالة على تجدد هذا الأمر منهم ، وحدوثه أينما كانوا وحيثما حلوا ، دون أن يكون له انقطاع بسبب النوائب والمحن ، أو نسيان بسبب العطايا والمنح .

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ٧٤/٨ .

(٢) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدى ٨١/١ ، مكتبة الآداب – ط الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

(٣) ينظر: روح المعانى ٢٦٠/٢٣ .

(٤) ينظر: الكليات لابى البقاء الكفومى٦٧٢ .

وقد عدل النظم الجليل عن صفة الجلال والرهبة إلى صفة الإحسان والنعمة فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ دون: إن الذين يخشون الله ، تنبيها على أنهم غلب عليهم النظر إلى جانب الإحسان الذى قادهم إلى الشكر ، والاعتراف بالمنة والفضل عليهم وإذا كانوا يخشونه مع نظرهم إلى صفة إحسانه، فما ظنك بهم عند نظرهم إلى صفات جلاله وانتقامه ؟ (١) .

والغيب المشار إليه فى قوله : " يخشون ربهم بالغيب " يشمل خشيتهم لربهم الذى لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم فى خفية عن أعين الناس ، وكلاهما معنى كبير ، وإدراك بصير وشعور نظيف يؤهل إلى الجزاء العظيم الذى ذكره السياق فى إجمال بديع فقال: " لهم مغفرة وأجر كبير " (٢).

وإنما قدم الحق – سبحانه – أمر المغفرة فى سياق ما أعد لهم من جزاء؛ لأنهم كانوا يخشون المؤاخذة على ما وقع منهم من ذنوب ، ربما تجرهم يوم الحساب إلى عذاب أليم ، فأراد الحق سبحانه أن يبعث فى قلوبهم الطمأنينة والثبات وعدم الخوف مما يتوقعون ، ومن ثم قدمها على الأجر ، وذلك من باب تقديم التخلية على التحلية ، أو من باب: دفع الضرر مقدم على جلب النفع ، وفى تقديم المسند على المسند إليه فى قوله: (لهم مغفرة) لإفادة الاهتمام ، وللتنبيه على أن مغفرة ذنوبهم أمر حاصل لهم فلا يغتمون ولا يحزنون ، وفى تنكير المغفرة دلالة على عظم أمرها ، وأنها تأتى على جميع ذنوبهم (٣).

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ٧٤/٨ بتصرف .

(٢) فى ظلال القرآن ٣٦٣٦/٦ بتصرف.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/٢٩.

وإنما كان لهؤلاء أجر من الله – سبحانه وتعالى – لأنهم قدموا عملا صالحا وهو الخشية لله تعالى بالغيب ، وبمقتضى عدل الله – سبحانه – فإن لهم على هذا العمل الذى قاموا به أجرا ، وهذا من باب السرور الذى منحهم الله إياهم ، حيث غفر لهم ما كان منهم من الخطايا ، وأعطاهم على ما وفقهم إليه من الخشية أجراً.

وإنما وصف هذا الأجر بكونه كبيراً لأن أصحابه أعلى منزلة وأكبر درجات من الذين فعلوا كبائر الذنوب ، ثم تابوا فتاب الله عليهم وبدل سيئاتهم حسنات ، وفى ذلك يقول سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ الفرقان ٦٨ – ٧٠.

أما هؤلاء فقد لازموا طاعة الله وخشيته فى السر قبل العلن ، وفى السراء والضراء ، فمن باب أولى أن يبدل الله سيئاتهم حسنات ، ومن ثم يكون لهم قدر من الحسنات هو مقدار ما كان لهم من الذنوب التى غفرت ، فإذا أضيف إلى هذا القدر أجر الخشية لله – تعالى – بالغيب وهم بعيدون عن أعين الرقباء ، نتج عن ذلك أجر كبير مكافأة لهم على حسن صنيعهم وتعظيمهم قدر ربهم سبحانه وتعالى بالغيب .

(والله أعلم)

المبحث الرابع
الأجـر العظيـم

يقال: عَظُمَ يَعظُم عِظَما : كبر ، وعَظَّم الأمرَ كَبَّرهُ ، وأَعْظَمَه واستعظمه رآه عظيما، وأعظم الأمرَ وعَظَّمه: فخَّمه، والتعظيم التبجيل [1].

والعظيم نقيض الحقير ، كما أن الكبير نقيض الصغير، والعظيم فوق الكبير ؛ لأن العظيم لا يكون حقيرا لكونهما ضدان، والكبير قد يكون حقيرا ، وقد يطلق العظيم على المستعظم عقلا فى الخير والشر مثل ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران ١٧٤] ، ومثل ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان ١٣] [2].

وبتتبع هذا الوصف فى الذكر الحكيم تبين أنه ورد وصفا للأجر فى ثمانى عشرة مرة ، هى كالتالى:

قال تعالى:

١- ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٧٢].

٢- ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٧٩] .

---

(1) اللسان ٤٠٩/١٢.

(2) الكليات ٦٣١.

٣- ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة ٩].

٤- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٤٠]

٥- ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٦٧] .

٦- ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٧٤] .

٧- ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٩٥] .

٨- ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ١١٤] .

٩- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ١٤٦] .

١٠- ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ١٦٢] .

١١- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال ٢٨].

١٢- ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة ٢٢] .

١٣- ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٢٩] .

١٤- ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ . . . . إلى قوله تعالى . . . . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٣٥] .

١٥- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح ١٠] .

١٦- ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ..... إلى قوله تعالى ..... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح ٢٩] .

١٧- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات ٣] .

١٨- ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن ١٥] [١] .

*****

(١) المعجم المفهرس ، ص ٥٧٠ : ٥٧٢ .

وبالنظر فى سياقات هذه الآيات يتبين أنها وردت متعددة الأغراض والمقاصد حيث ورد وصف الأجر بالعظيم فى سياق الحديث عن (الجهاد) وفضله فى أربع آيات من النظم الكريم هى قوله تعالى:

١- ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٧٢] .

٢- ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ٧٤] .

٣- ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ٩٥] .

٤- ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة ٢١ – ٢٢] .

*****

ولا يخفى أن الجهاد فى سبيل الله ذروة سنام الإسلام ؛ لما فيه من التخلى عن اللذات وترك الشهوات ، ومجانبة المحبوبات من الأزواج والأولاد ، والجود بالنفس التى تتطلع دائما إلى الدعة والراحة والعيش الخافض ، ومن ثَمَّ وجه الله الأمر بالجهاد لمن يبيعُ كل ذلك بالدار الآخرة فقال: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

ومعلوم أن هذه الآية جاءت ترغيبياً فى الجهاد بعد ذم الله المبطئين الذين قال فى شأنهم: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ﴿ ٧٢ ﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿ ٧٣ ﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ ... ﴾ [النساء ٧٤].

وعلى ذلك فـ (الفاء) فى قوله ﴿ فليقاتل ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر ، كأنه قيل: إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم لله الواحد ؟ [1]

وقوله: ﴿ فليقاتل ﴾ أمر يفيد الوجوب أو الاستحباب تبعاً لطبيعة القتال هل هو من فروض العين ، أو من فروض الكفاية ؟ لأنه طاعة ، والطاعة لا تنفك عن كونها واجبة ، أو مستحبة على أقل تقدير [2] .

ثم انظر كيف قدم النظم الكريم المفعول به على الفاعل فقال: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ ... ﴾ فقوله: ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ مفعول به غير صريح قدم على فاعله ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ ﴾ لمزيد الاهتمام بهذا الشأن ، وذلك لأن الإسلام لا يعرف قتالا إلا فى هذا السبيل [3] ، فهو لا يعرف قتالا من أجل الغنيمة ، ولا يعرف قتالا للسيطرة ، ولا

---

(1) ينظر: روح البيان ١٨٧/٢ .

(2) مقال على صفحة النت تحت عنوان: من آيات القتال: شبكة الفصيح – قسم علوم اللغة العربية – منتديات البلاغة والنقد .

(3) قوله: (لا يعرف قتالاً إلا فى هذا السبيل) على سبيل الغالب ، وإلا فهناك قتال مشروع من أجل الدفاع عن العرض وعن المال وعن النفس ... كما هو معلوم .

يعرف قتالا للمجد الشخصى أو القومى ، وإنما يعرف القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله فى أرضه ، وتمكين منهجه بين خلقه ليتمتع البشر بخيرات هذا المنهج وسعادته [١] .

ولذلك ورد عن أبى موسى الأشعرى ﷺ أنه قال: " جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله" صدق رسول الله ﷺ [٢] .

ومن هنا خص الله القتال الذى يثيب عليه بأن يكون فى سبيله وأمر به ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ .

و (يشرون) بمعنى يبيعون ، لأن شرى مقابل اشترى غالبا ، فالذين يشرون الحياة الدنيا هم الذين يبذلونها ويرغبون فى حظ الآخرة ، وفى الشراء استعارة مبادلة العين بثمنها ، لمبادلة الروح بنعيمها ، و (الباء) إنما تدخل على الثمن ، وعلى ذلك فثمن الدنيا الفانية هو الآخرة الباقية ، وإسناد القتال المأمور به فى قوله (فليقاتل) إلى أصحاب صلة الموصول (الذين يشرون) للتنويه بفضل المقاتلين فى سبيل الله ، لأن فى الصلة إيماءً إلى علة الخبر ، أى الذى يبعثهم على القتال فى سبيل الله بذلهم حيادتهم الدنيا لطلب الحياة الأبدية ، ثم هناك أمر آخر ألا وهو فضيحة أمر المبطئين ، حتى يرتدعوا عن التخلف والدعوة إلى تثبيط الهمم ، وما فى ذلك من كشف لدخيلة نفوسهم [٣] .

---

(١) ينظر: فى ظلال القرآن ٧٠٧/٢ .

(٢) صحيح البخارى ١٠٣٤/٣ رقم الحديث ٢٦٥٥ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١٢١/٥ .

ثم أردف النظم الكريم بعد ذلك جزاء تلك الصفقة فقال: ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، و (من) اسم شرط ، وهو نص فى العموم لا مخصص له ، فإذا ما استوفى المقاتل شرط القبول ، وانتفت عنه موانعه ، استحق الجائزة المذكورة ، وإنما جاء النظم بذكر الجزاء فى صورة الشرط ، حفزاً للهمم وتقوية للعزائم ، حتى تعلم النفس أنها لن تنال المشروط من الجزاء إلا بامتثال شرطه، (ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر) [1] .

وإنما اقتصر النظم الكريم على القتل والغلبة فى قوله: (فيقتل أو يغلب) ولم يذكر حالة الأسر فلم يقل: أو يؤسر ، إباية من ذكر حالة ذميمة لا يرضاها للمؤمنين وهى حالة الأسر ، فسكت سبحانه عنها لئلا يذكرها فى معرض الترغيب ، وإن كان للمسلم عليها أجر إن بذل جهده فى الحرب فغلب ، إذ الحرب لا تخلو من ذلك [2] .

وقدم سبحانه القتل على الغلبة فقال: ﴿ فيقتل أويغلب ﴾ ، للإيذان بتقدمه فى حصول الأجر ، فكأن الشهيد يأخذ أجره من الحق سبحانه قبل أن يأخذه المنتصر ، وذلك لأن درجة الشهادة أعظم من غيرها ، ومن ثم كان لها حق التقديم والذكر واستتباع الأجر [3] .

ويلاحظ أن البيان القرآنى قد ذكر من جانب القتل ما كان إسناده إلى المسلم على جهة المفعولية فقال (يُقتل) بينما ذكر فى جانب الغلب ما كان إسناده

---

(1) من آيات القتال – المقال السابق ، وقوله ومن يخطب الحسناء ... إلخ عجز بيت لأبى فراس الحمدانى أوله:تهون علينا فى المعالى نفوسنا

(2) التحرير والتنوير ١٢٢/٥ بتصرف .

(3) ينظر: روح المعانى ٨١/٥ .

إليه على جهة الفاعلية فقال: (يغلب) وذلك لبيان جوهر غاية الإسلام من أمر الجهاد ، حيث أراد أن يعلمه أن همه فى جهاده ، ليس قتل الأعداد والاستحواذ على الغنائم ، بل همه نصر الإسلام والاستشهاد فى سبيل الله ، وهذا يقتضى من كل مجاهد أن يثبت فى القتال وإن كان عدوه ذا عدد وعتاد ، ومن كان هذا منهاجه فلن يكون له إلا العز والمجد له ولدينه [1] .

وإذا ما ثبت المسلم على هذا المنهج وقاتل من أجل هذه الغاية ، فإن الحق سبحانه يبين ما أعده له بقوله: ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

وانظر إلى دقة الآداء القرآنى فى عرض هذا الجزاء ، وكيف أراد الله بقوله: ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ أن يطيل أمد العطاء لهؤلاء ، ولمعرفة ذلك يقال: إنك حين تقول لآخر: احضر إلىّ أُكْرِمْك يعلم أنه بمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت له: إن حضرت إلى فسأكرمك ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد بينكما قليلا بحيث لن يكرم من فور حضوره ، بل يحضر عندك ثم يأخذ تحيته ثم يأتيه الإكرام بعد قليل ، وإن أردت أن تطيل المدة بينك وبينه فإنك تقول له: إن حضرت إلىّ فسوف أكرمك ، إذاً نحن أمام ثلاث مراحل من ترتيب الجزاء على الفعل ، حيث هناك جزاء يأتى فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير ، وهذا تؤديه السين ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول ، وهذا تؤديه (سوف) ، ومن ثم لم يقل الحق فى أمر المجاهد: ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب نؤته أجرا عظيما ، أو: فسنؤتيه أجرا عظيما ، ولكنه قال: فسوف نؤتيه أجرا عظيما ، وبذلك يُعْلم أنه سبحانه لم يرد أن تنتهى الصفقة بينه وبين المجاهدين فى وقت يسير ، ولكنه سبحانه يريد أن يمتد الزمن

([1]) الإمام البقاعى ومنهاجه فى تأويل بلاغة القرآن ، للدكتور/محمود توفيق محمد سعد ، ص٢٩٠ ، مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .

بينه وبينهم حتى يبالغ فى إكرامهم ، وتطول مدة أنسهم به سبحانه ، وما ذاك إلا لأن هذا القول سيبقى إلى يوم القيامة لذلك كان لابد أن تأتى (سوف) فى جزاء المجاهدين وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع [1] .

وإنما كان لهؤلاء المقاتلين فى سبيله سبحانه (أجر) لأنهم وهبوا حياتهم لله سبحانه ، وقدموها فداءً لدينه ونصرة لنبيه ﷺ ومن رجع منهم سالماً فإن الحق سبحانه قد قبل منه عمله وما ترتب عليه من رفع راية الإسلام ، وإعلاء كلمة الله جل جلاله، ومن ثم استحقوا أن يكون لهم من الله أجر –بمحض فضله– على عملهم هذا .

وإذا كان الفعل يتناسب مع فاعله أثرا وقيمة ، فلابد أن يكون أجر هؤلاء المجاهدين فى سبيله سبحانه عظيما ، لأن الحق سبحانه عظيم قدره ، ومن ثم لابد أن يكون عظيم أجره .

هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن عظيم أجر المجاهدين قد نبع من الأثر المترتب على الجهاد ، حيث ترتب عليه الفوز بمرتبة الشهادة ، وتلك جعل الله أصحابها مع رفقة النبين والصديقين والصالحين ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء ٦٩] .

كما أن الجهاد فى سبيله سبحانه سبب من أسباب الفلاح فى الدنيا والآخرة وفى ذلك يقول سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة ٣٥] .

---

(1) تفسير الشعراوى ١٦٠٨ بتصرف .

كما أن الجهاد سبب فى النجاة من النار مع غفران الذنوب ودخول الجنة وفى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصف ١٠ – ١٢] .

هذا بالإضافة إلى ما بينه ﷺ من أجر المجاهدين وثوابهم ، حيث روى سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال: " رِبَاطُ يومٍ فى سَبيلِ الله خَيرٌ من الدنيا وما عليها ، ومَوضِعُ سَوْط أَحدِكم من الجنّة خيرٌ من الدنيا وما عليها ، والرّوحَة يَرُوْحها العبدُ فى سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها " [١] .

كما روى مالك بن عبد الله الخثعمى عن النبى ﷺ أنه قال: " مَنْ اغْبَرّتْ قدماه فى سبيل الله حرّمه اللهُ على النار " [٢] .

وما رواه الهيثمى فى زوائده – من حديث الإسراء والمعراج – يُبين إلى أى مدى بلغ أجر المجاهدين ، حيث أتى النبى ﷺ على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال: من هؤلاء ياجبريل ، قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه[٣].

---

(١) صحيح البخارى ١٠٥٩/٣ رقم الحديث ٢٧٣٥ .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٢٩٧/١٩ ، تح/ حمدى بن عبد المجيد السلفى – رقم الحديث٦٦١– مكتبة العلوم والحكم – الموصل– ط الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٣٦/١ رقم الحديث ٢٣٥ لنور الدين على بن أبى بكر الهيثمى –دار الفكر –بيروت ١٤١٢هـ.

فإذا كان للجهاد فى سبيل الله كل هذه المزايا ، وتلك الصنوف من الأجور ألا يستحق بعد ذلك أن يوصف أجرهم على جهادهم بأنه عظيم ؟

ومثلما وصف النظم الكريم – فى الآية السابقة – أجر المجاهدين بأنه عظيم تعدد ذكر هذا الوصف فى الآيات التى وردت فى سياق الجهاد وبيان فضله كما فى آل عمران ١٧٢ ، والنساء ٩٥ ، والتوبة ٢٢ ، وذلك لما له من المنزلة الرفيعة والدرجة العالية بين صفوف الطاعات .

*****

بينما ورد وصف الأجر بالعظيم فى سياق التحذير من الافتتان بالمال والولد فى موضعين من الذكر الحكيم ، وهما قوله:

١- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال ٢٨].

٢- ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن ١٥] .

والناظر بإمعان فى هاتين الآيتين تتكشف له حقيقة أجلى من الشمس فى رابعة النهار ، حيث يبين له أن القرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية ، بما يعلم خاقلها من تركيبها الخفى ، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن ، وعلى المنحنيات والدروب ، والمسالك ، وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة ، ويعلم أن الحرص على الأموال والأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها ، ومن هنا ينبهنا إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد ، حيث وهبها الله للناس ليبلوهم بها ويفتنهم فيها ، فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع ابتلاء واختيار ، وما ذاك إلا ليرى الله سبحانه صنيع العبد وتصرفه فيها ، وأيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها ، أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فى شأنها ؟ قال تعالى: ﴿

وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ، فالفتنة لا تكون بالشدة والحرمان وحدهما ، وإنما تكون كذلك بالرخاء والعطاء ، ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد [١] .

وإنما كانت الأموال والأولاد سببا فى الفتنة لأنهما يؤديان بسبب حبهما والحرص عليهما إلى الانشغال عن الطاعات ، والبعد عن المواعظ ومخالطة الأخيار من أهل الدين والتقوى ، وربما آل الأمر إلى ارتكاب المحرمات والأوزار بسبب تلك المحبة ، ولا بلاء أعظم من ذلك ، حيث يصير المحبوب سببا فى الهلاك والخسران ، ومن ثم ابتدأ النظم الكريم أولى الآيتين بقوله: ﴿ واعلموا ﴾ " وهى كلمة ينبه بها السامع على أن ما بعدها مهم جداً " [٢] .

وجئ فى الإخبار عن كون الأموال والأولاد فتنة بطريق القصر فقيل: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لقصد المبالغة فى إثبات أنهم فتنة ، وجعل نفس الأموال والأولاد فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما ، مبالغة فى التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها،فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة[٣] .

والقصر المستفاد من " إنما " قصر موصوف على صفة ، أى: ليست أموالكم وأولادكم إلا فتنة ، وهو قصر ادعائى للمبالغة فى كثرة ملازمة هذه الصفة للموصوف، إذ يندر أن تخلو أفراد هذين النوعين – وهما الأولاد والأولاد – عن الاتصاف بالفتنة لمن يتلبس بهما ، ويقترن حاله بحالهما ، لما فيهما من اشتغال القلب عما يجب عليه نحو خالقه ومولاه [٤].

---

(١) فى ظلال القرآن ١٤٩٨/٣ بتصرف .

(٢) نظم الدرر ٢٠٧/٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٥/٩ بتصرف .

(٤) السابق٢٨٦/٢٨ بتصرف، وينظر: البلاغة الواضحة لعلى الجارم ، ص٢١٦ ، دار المعارف – القاهرة.

فإذا ما انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار – المتمثل فى حب الأموال والأولاد – كان ذلك عونا على الحذر واليقظة والاحتياط من أن يستغرق فى الانشغال بهما عن طاعة خالقه ومولاه، مما يؤول به إلى الإخفاق فى هذا الامتحان الصعب ، ولكن الحق سبحانه لا يدع العبد بلا عون منه ولا عوض – فقد يضعف عن الأداء بعد الانتباه لثقل التضحية وضخامة التكاليف ، وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد – فتراه يلوح له بما هو خير وأبقى ، ليستعين به على الفتنة ويتقوى ، فيقول له مرة: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وأخرى: ﴿ واللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وإنما ذكر الله سبحانه هذا الأجر بعد الإخبار بأن الأموال والأولاد فتنة ؛ ليعلم من ابتلى بهما واستعلى على حبهما ، وآثر محبة الله وطاعته على محبتهما والانشغال بهما، والتدبر فى أحوالهما=أن له وراء ذلك أجراً عند الله جزاء ما قدم من كف النفس عما تسوله له من الانحراف عن مرضاة الله بسبب حب المال والولد .[1]

ولم يكتف سبحانه بدلالة السياق على أن التنوين فى قوله " أجرٌ " للتعظيم، حتى وصفه بقوله : " عظيم " [2].

وإنما خص النظم الكريم وصف الأجر فى سياق التحذير من الافتتان بالمال والولد بأنه " عظيم " لأن المال والأولاد من أعظم ما يبهج المرء فى دنياه، وبهما يحظى بزينة الحياة الدنيا ، قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف ٤٦] . فإذا ما نفض المرء يده من حبهما حبا يقوده إلى التهلكة ، ورفض عن اختيار تعلق

(1) ينظر: فى ظلال القرآن ١٤٩٨/٣ .

(2) نظم الدرر ١٩/٨ بتصرف.

القلب بهما تعلقا ينسيه آخرته ، ويجعله يظن أن دنياه جنته ، فقد أتى ببيض الفعال ، وأعظم الخلال لكونه استعلى على حب أمر عظيم ، جبلت النفوس على محبته وأشربت كأس مودته ، ومن ثم استحق أن يكون الجزاء من جنس العمل ، فكان له من خالقه ومولاه " أجر عظيم " يعوضه عظيم ما ترك ، وينسبه زينة الدنيا ولذتها ، بنعيم الآخرة وسرورها .

والناظر فى آية الأنفال التى يقول الحق سبحانه وتعالى فيها:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وآية التغابن التى يقول فيها :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

يجد أن بينهما بعض الاختلاف فى الذكر والحذف ، حيث زيد فى آية الأنفال قوله: " واعلموا " مع التوكيد بـ" أن " ولا وجود لذلك فى آية التغابن .

وقد ذكر الإمام البقاعى السر فى إيراد قوله: " واعلموا " فى صدر آية الأنفال فقال:

ولما كان سبب الخيانة غالبا محبة المال والولد – ويريد بالخيانة هنا الأمر الوارد فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال ٢٧] وكان سبب إنزال هذه السورة هى الأموال من الأنفال ، وكان من أعظم الخيانة فى الأنفال الغلول ، وكان الحامل على الغلول المحنة بحب جمع المال إما استلذاذا له أو لإنفاقه على محبوب ، وكان الولد أعز محبوب ، حسن كل

الحسن إيلاء ذلك قوله: " واعلموا " وهى كلمة ينبه بها السامع على أن ما بعدها مهم جدا [1].

وقيل: إن فى ذكر " اعلموا " دلالة على الاهتمام والتنبيه على الحذر من الخيانة التى يحمل المرء عليها حب المال ، وهى خيانة الغلول وغيرها [2].

أما سر التأكيد بـ(أنَّ) فى الأنفال فـ (لعله يكون مجاراة لما وقع فى السورة من تأكيدات فى الآيات السابقة عليها، مثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠) وقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١٣) ، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٧) ، وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٨) ، وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩) ، وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤)، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٢٥)[3].

أما آية التغابن فإن ما جاء فيها كان صريحا فى بيان الخطر المتوقع من الأولاد ، إذ إن آية التغابن وقعت بين قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤) وقوله:

---

(١) نظم الدرر ٢٠٧/٣ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٤/٩ بتصرف.

(٣) متشابه النظم القرآنى بين الذكر والحذف ، رسالة دكتوراه للباحث سلامة دردير محمد على – مخطوط فى كلية اللغة العربية بأسيوط ، نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (١٦) فبين العداوة والتقوى المحيطين بالآية يظهر خطر الفتنة ، وبهذه التقوى الحامية من الشيطان تكون المتعة المشروعة بالأموال والأولاد كما يكون الرضا ، ومن ثم لم يحتج الأمر إلى تنبيه أو تأكيد [١].

وقدمت الأموال على الأولاد فى سياق التحذير من الافتتان بهما (لأن الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة ، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق ٦، ٧] ، وليست الأولاد فى استلزام الفتنة مثلها ، فكان التقديم أولى) [٢] .

وقيل قدمت الأموال لأن كل واحد له مال ، ولو لم يكن له إلاّ ملبسه ، وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد ، ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، وهذا أمر يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن ياتى النظم بالأموال أولاً، ثم يأتى بذكر الأولاد [٣].

*****

ثم ورد وصف الأجر بالعظيم فى سياق الحديث عن المنافقين التائبين والمأمورين بالتوبة فى موضعين من الذكر الحكيم ، هما: قوله تعالى:

١ – ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ النساء ١٤٦.

---

(١) ينظر: بلاغة التكرار فى القرآن الكريم ص٤٣١ – رسالة دكتوراه للباحث محمود عبد الحميد هوى – مخطوط فى مكتبة اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٩م ، نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

(٢) الإتقان للسيوطى المجلد الثانى ٤٦/٣ .

(٣) تفسير الشعراوى ٣٢٥٥ بتصرف.

٢- ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء ٦٧.

ومعلوم أن المنافقين أشد خطرا على الإسلام من الكافرين ؛ لأنهم شاركوهم فى الكفر بالله ومعاداة رسوله ﷺ وزادوا عليهم المكر والخديعة ، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يشعر به ولا يحس ، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق ما لا يستحقونه ، فبذلك ونحوه استحقوا أن يكونوا فى أسفل الدركات من العذاب ، وأشد الحالات من العقاب ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ النساء ١٤٥ [١].

ولكن الحق سبحانه استثنى من هذا العذاب الأليم من تاب وآب إليه سبحانه فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

وهذه الآية فيها تغليظات عظيمة على المنافقين ، وذلك لأن الله تعالى شرط فى إزالة العقاب عنهم أمور أربعة: هى التوبة ، وإصلاح العمل ، والاعتصام بالله ، والإخلاص ، فإذا حصلت هذه الشرائط الأربعة استحقوا جزاءهم الوارد فى قوله : ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢].

ودخلت (الفاء) على قوله: " أولئك " لما فى الكلام من معنى الشرط المتعلق بـ(الذين) ، ووجئ باسم الإشارة (أولئك) تعبيرا عن المنافقين التائبين ؛ لزيادة تميز هؤلاء الذين تابوا ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة ، وهو أنهم (مع المؤمنين) وما ترتب على ذلك من أجر ، وفى لفظ (مع) إيماء

([١]) ينظر: تفسير السعدى ٢١١/١ ، تح/ عبد الرحمن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

([٢]) ينظر: التفسير الكبير للفخر الرازى ٧٠/١١ .

إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ، ولم يصم نفسه بالنفاق ، وفى ذلك تشريف للمؤمنين بأنهم مُتَّبَعون ، والمنافقون بعد الشرائط تبع لهم [1].

وانظر كيف حكم عليهم النظم بأنهم – بعد التوبة والصلاح – مع المؤمنين ، ولم يحكم عليهم بأنهم مؤمنون ، ولا من المؤمنين – وإن كانوا قد صاروا مؤمنين – تنفيرا مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق ، وزجراً لحال من كان متلبسا به، وإعلاما بأن رتبتهم إنما هى رتبة التابع وليس رتبة المتبوع [2] .

" وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرا عظيما ، مع أن السياق فيهم ، بل قال: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ؛ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبتدئ فيها ويعيد ، وهى إذا كان السياق فى بعض الجزئيات ، وأراد أن يرتب عليه ثوابا أو عقابا ، وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه ، رتب الثواب فى مقابلة الحكم العام الذى تنتدرج تحته القضية وغيرها ، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئى ، فهذا من أسرار القرآن البديعة ، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم " [3] .

" وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا فى النفاق ، وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل فى التنعيم وفى نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير ٥/٢٤٤.

(2) ينظر: البحر المحيط ٣/٣٦٩ .

(3) تفسير السعدى ٢١١ .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين ، ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه " [1] .

وإنما كان للمؤمنين (أجر) لأن الحق سبحانه وعد من أسلم وآمن بالأجر على ذلك فقال: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة ١١٢] ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ، أما لماذا كان أجرهم عظيماً ؟ فما ذاك إلا لأن إيمانهم كان صحيحا من أول أمره ، فلم يشتككوا فيه ، ولم يشوبوه بتردد ، ولم يقع فيه زيغ أو اضطراب ، ولم يصدر عنهم نفاق أصلا ، بل أخلصوا دينهم لله ، وتمسكوا بتعاليمه ظاهرا وباطنا ، ولم يكن لهم ملجأ إلا الله ، ولا ملاذ إلا حماه ، وعظموا دين الله فى نفوسهم ، فاستحقوا أن يكون أجرهم على ذلك عظيما .

وقد فسر العلامة أبو حيان الأجر العظيم بالخلود فى الجنة [2] ، ولعل التعميم فى ذلك أولى ؛ لأن كل من يدخل الجنة فسوف يخلد فيها ، سواء من تاب من نفاقه ، أم من كان مؤمنا من أول الأمر ، ولعل المراد بالأجر العظيم هنا هو زيادة ثواب من لم يسبق منه نفاق أصلا على من سبق منه ، وكل له منزلته عند ربه [3] .

*****

ومثلما كان للمنافقين أجر عظيم ينالونه مع المؤمنين إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم له ، كان لهم الأجر بعينه إن هم فعلوا ما يوعظون

([1]) تفسير الشعراوى ١٨٩٨ .

([2]) ينظر: البحر المحيط ٣٩٧/٣ .

([3]) ينظر: روح المعانى ١٧٩/٥ .

به ، وفى ذلك يقول سبحانه: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴿ ٦٥ ﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴿ ٦٦ ﴾ وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيما ﴿ ٦٨ ﴾ ﴾ [النساء] .

" و (ما يوعظون به) هو ابتاع الرسول ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ، لأنه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى " [1] .

وسميت أوامر الله ونواهيه مواعظ ؛ لاقترانهما بالوعد والوعيد ، ومعنى ﴿ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ أى لكان فعلهم ذلك خيراً لهم عاجلاً وآجلاً ، ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ لهم على الإيمان وأبعد من الاضطراب فيه ، وأشد تثبيتاً لثواب أعمالهم [2] .

واستحقوا أن يكون لهم أجر من الله عظيم لأنهم إذا استجابوا لما يأمر به الله ورسوله ، وانقادوا لهما ، يكونوا قد سلكوا سبيل المؤمنين الطائعين الذين قال الله فى شأنهم ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

وإذا كان الحق سبحانه قد قضى للمنافقين التائبين بالأجر العظيم عن طريق إدخالهم فى زمرة المؤمنين ، فإن صحابته – صلى الله عليه وسلم – الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولى بهذا الأجر ، وأحق به ممن سواهم ، وفى ذلك قال سبحانه فى شأنهم ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء

([1]) الكشاف ٥٦٢/١ .

([2]) تفسير أبى السعود ١٩٨/٢ بتصرف .

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[الفتح ٢٩] ويقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح ١٠] ، ويثنى الحق سبحانه على المتأدبين معه – صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته الموقرين إياه فيقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات ٣] .

وما ذاك إلا لأنهم فازوا بشرف المصاحبة وكرم المجاورة له ﷺ ورزقوا من وراء ذلك قبول العمل ، والإخلاص لله فى السر والعلن ، فاستحقوا أن يكون أجرهم على ذلك عظيما ، لما عرفوا من عظيم قدره ، وجلاله شأنه – صلى الله عليه وسلم عند ربه .

ولم يقف النظم الكريم بهذا الأجر عند صحابته – صلى الله عليه وسلم – وحدهم ، بل شارك فيه أمهات المؤمنين اللاتى خيرهن بين الحياة الدنيا وبين الله ورسوله فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب ٢٨ – ٢٩] .

والناظر إلى الآية الأولى من هاتين الآيتين يلاحظ أن الحق سبحانه لم يذكر فى اختيار الدنيا وزينتها وعيداً لأزواجه – صلى الله عليه وسلم – حيث لم

يقل لهن: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فإن الله أعد لكن عذابا عظيما ، ولعل ذلك يرجع إلى شدة الاحتياط والمحافظة على حرية الاختيار التى يريدها الحق منهن [١] .

وقد أشار إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود فقال: " وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير ، والاحتراز عن شائبة الإكراه " [٢] .

إذاً فـ (علينا أن نحكم فهم هذا حتى نستيقن أنه لا إكراه فى دين ، ولا إكراه فى طاعة ،وأن سبيل الله أرفع شأنا من أن يُكره أحد إليه ، وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة،حتى تكون الطاعة مصحوبة بالإقبال والقلب الحىّ)[٣].

ومعنى قوله فى الآية الثانية ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى إن كنتن تردن رسول الله ، وإنما ذكر لفظ الجلالة قبل قوله (ورسوله) – وإن كانت من تختار رسول الله قد اختارت فى الوقت ذاته الله تعالى – للإيذان بجلالة منزلته ﷺ عنده تعالى، والمراد بالدار الآخرة: نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها ، و (الفاء) فى قوله: ﴿ فإن الله أعدَّ ﴾ واقعة فى جواب " إن " [٤] .

وتوكيد جملة الجواب بأم أدوان التوكيد (إنَّ) – التى ليست هنا لإزالة التردد – لمزيد الاهتمام بهذا الأجر ، وفى ذكر الإعداد (أعَدَّ) ما يفيد العناية بهذا

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – محمد أبو موسى ، ص٢٤٩ بتصرف .

(٢) تفسير أبى السعود ١٠١/٧ .

(٣) من أسرار التعبير القرآنى – سورة الأحزاب ، د/ محمد أبو موسى ٢٤٩ .

(٤) ينظر: روح المعانى ١٨٢/٢١ .

الأجر والتنويه به ، زيادة على وصفه بالعظيم ، وفى التعبير عن الإعداد بالماضى مع أن الأمر للمستقبل للدلالة على تحقق الوقوع ... ولما كانت إرادتهن واختيارهن الله ورسوله مقتضية عملهن الصالحات ، جعل الأجر على ذلك بالإحسان فقال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ليعلمن أن هذا الأجر حاصل لهن على قدر إحسانهن [١] " لا بكونهن زوجات للرسول ، فإن مجرد ذلك لا يكفى ، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان " [٢] .

والمحسنات: هن العاملات عملاً صالحاً طيباً [٣] .

ومِنْ فى قوله (منكن) بيانية وليست للتبعيض ، وذلك لأن كل زوجاته – صلى الله عليه وسلم – اللاتى خيرهن محسنات ، وهن أصلح نساء العالمين بلا شك فى ذلك ، وجاء نظم الآية على نحو ما ذكر دون أن يقول: فإن الله أعد لكن أجراً عظيما، إعلاما بأن كل الإحسان فى إيثار مرضاة الله ورسوله على مرضاة أنفسهن[٤].

ولعل فى ذكر المحسنات هنا دون غيره من مثل: الصالحات أو الطيبات أو المتقيات .. إلى غير ذلك ، أمراً آخر غير الطاعة والعمل الصالح ، ألا وهو حسن الاختيار وبراعة الاصطفاء ، ليكون معنى ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى أعد لمن أحسنت الاختيار – فيما عرض عليها واختارت الله ورسوله – أجراً عظيماً جزاء إيثارها رضى الله ورسوله ﷺ على الحياة الدنيا الفانية ، وهذا معنى لا أراه مرفوضاً أو مطروداً من ساحة الدلالة اللغوية للكلمة ، بل أراه يقف جنباً إلى جنب

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢١/٣١٧ .

(٢) تفسير السعدى ٦٦٢ .

(٣) ينظر: التفسير الكبير للرازى ٢٥/١٧٨ .

(٤) ينظر: روح البيان ٧/١٢٦ .

بجوار الطاعة والعمل الصالح ، لتؤدى " المحسنات " ، معنى الصالحات الطائعات ، ومعنى الرشيدات اللاتى يحسن اختيار ما ينفعهن فى الدنيا والآخرة ، وهذا يزيد من سعة دلالة الكلمة ، وتشبعها بأكثر من معنى .

وإنما خص النظم الكريم هنا الأجر بكونه عظيماً ؛ لأن قضية التخيير وقعت بين الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة من جانب ، وبين الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها من جانب آخر ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستعلين على متاع الحياة الدنيا وزينتها ورفضن الانغماس فيها والاشتغال بها ، طلباً لما عند الله ، وابتغاءً لمرضاته ، ومن ثم كان الأجر على هذا الاختيار عظيماً ؛ لأن ما تركنه وإن كان حقيراً عند الله ، إلا إنه عظيم عند الناس ، لكون الرغبة الطبيعية فى متاع الدنيا تسرى فى وجدان البشر سريان الدماء فى العروق ، ونفض اليد من تلك المحبوبات وجعلها وراء الظهر أمر قل من يصبر عليه ويميل عنه ، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل ، وكأن الحق يريد أن يقول لهن: إن كنتن تركتن أمراً عظيماً فى الدنيا ، فإنى أعددت لكن بدلاً منه أجراً عظيماً فى الآخرة .

وبذلك يزداد يقين أمهات المؤمنين – وغيرهم – بأن ﴿ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٤٠] .

ثم يثبت النظم الكريم هذا الأجر العظيم لسائر المؤمنين والمؤمنات الذين تلبسوا بالطاعة ، واقترنوا بالعبادة ، وداوموا على فعل الخيرات واكتساب الحسنات فيقول: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب ٣٥].

ويقول: ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ١١٤] .

ثم يطلب الحق سبحانه من المؤنين الدوام على إيمانهم وتقواهم حتى يستمر العطاء الإلهى لهم كما كان من ذى قبل ، وحتى يمنحهم الأجر العظيم دون نقصان أو تغيير ، فيقول: ﴿ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران ١٧٩].

ولم يحرم الحق سبحانه أهل الكتاب الذين آمنوا به – صلى الله عليه وسلم – وآمنوا بما أنزل من قبله من هذا الأجر ، بل منحهم إياه وجعل لهم فيه نصيباً ، حيث يقول ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ١٦٢] .

وما ذاك إلا لأنهم آمنوا بالكتاب الذى أنزل عليهم من قبل ، واتبعوا رسولهم ، ثم آمنوا بسيدنا محمد ﷺ وبما أنزل عليه من القرآن ، واتبعوا أوامره واجتبوا نواهيه " ولم تزعزعهم عن ذلك شبهه ، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة " [1] ، وتنزهوا عن قول الجهال من قومهم ، فلم يقولوا ﴿ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء ١٥٣] ، فناولوا شرف الرسالتين وحسن الشريعتين ، فاستحقوا أن يؤتوا أجرهم على ذلك مرتين ، ومصداق ذلك ما رواه الشعبى عن أبى بردة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: الرجل تكون له الأمة فيعلمها فيحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن أدبها ، ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران ، ومؤمن

(1) تفسير السعدى ٦٢٠ .

أهل الكتاب الذى كان مؤمناً ثم آمن بالنبى ﷺ فله أجران ، والعبد الذى يؤدى حق الله وينصح سيده " [1]

صدق رسول الله ﷺ فكيف لا يكون أجرهم بعد ذلك عظيماً ، والذى منحهم ذلك الأجر لا نعرفه إلا جواداً كريماً .

(والله أعلم)

(1) صحيح البخارى ١٠٩٦/٣ ، تح/ مصطفى ديب البغا ، وينظر السنن الكبرى للبيهقى ١٢٧/٧ ، الناشر مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، ط الأولى ١٣٤٤هـ .

المبحث الخامس

الأجر غير الممنون

غير الممنون : بمعنى غير المقطوع من قولهم: حبلٌ منِيْنٌ إذا انقطع وخَلَق ، وقيل: من المنّ: أى لا يُمَنُّ به عليهم [١]

وقد ورد هذا الوصف فى أربع آيات من الذكر الحكيم هى قوله تعالى:

١- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت ٨] .

٢- ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم ٣] .

٣- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق ٢٥] .

٤- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين ٦] [٢].

*****

وبمراجعة الآيات السابقة يتبين أن ثلاثة منها خصت بالحديث عن المؤمنين على وجه العموم ، وذلك فى آيات : فصلت ، والانشقاق ، والتين ، وآية منها خصت بالحديث عن النبى ﷺ ، ألا وهى آية القلم .

ويتبين كذلك أن الايات الثلاث التى خصت بالحديث عن المؤمنين ذكرت لهم وصفين لا ثالث لهما ، ألا وهما: الإيمان والعمل الصالح ، ثم ذكرت الأجر المترتب على ذلك ، بينما فى الحديث عن النبى ﷺ تمحضت الاية كلها لبيان أجره ﷺ الذى أعده الله له ، دون أن تذكر شيئا من عمله ﷺ ... وسيبين السر فى ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) اللسان ٤١٥/١٣ .

(٢) المعجم المفهرس ٧٧٣ .

وأول الآيات التى ذكرت هؤلاء المؤمنين وأجرهم هى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت ٨] .

والآية الكريمة مستانفة استئنافا بيانيا ، نشأ عن الوعيد الذى وجه إلى المشركين الذين قالوا لرسولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت ٥] .

فأمرهم سبحانه عن طريق رسوله ﷺ بالاستقامة والاستغفار عما فرطوا فيه ، فقال لهم: ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت ٦] ، ثم أظهر لهم جانب الوعيد لمن أشرك وأنكر البعث فى قوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت ٦ ، ٧] ... وقد صدرت الآية بـ(إن) الدالة على التأكيد لأن الذى يسمع ما قبلها تتشوف نفسه إلى معرفة جزاء ما يقابل هؤلاء المشركين من الفريق الثانى الذى استقام إلى ربه ، واستغفر عما بدر منه من خطايا ، وما وقع منه من آثام ، وكأن هذا السامع يسأل قائلاً: فما جزاء من آمن واستقام ؟ فجاء التاكيد فى صدر الإجابة فقيل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ؛ ليؤكد أنهم على حال يغاير هؤلاء المشركين ؛ ويناقض شأنهم البتة [1].

والناظر إلى الاسم الموصول فى الآية الكريمة وهو (الذين) يرى أن صلته جاءت مكونة من فعلين جامعين لأمر الدين كله ، ألا وهما : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، وهذا عجيب جدا ، لأن الفعل الأول (آمنوا) يعنى الإيمان بالذى أوحاه الله إلى نبيه ﷺ وهو ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [فصلت ٦] ، وما يترتب على ذلك من الاستقامة

(1) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤/٢٤٠ .

والاستغفار والطاعة ، والفعل الثانى وهو (عملوا الصالحات) من الأفعال الجامعة المذهلة – مع ما به من الإيجاز – لأن عمل الصالحات لا ينحصر فى التكاليف الشرعية كالصلاة والزكاة والصوم والذكر ، وإن حصرناها فى ذلك فقد ضيقنا دلالتها المتسعة ، وذلك لأن دلالتها ممتدة بحيث تشمل كل عمل صالح تصلح به حياة الأمة ، ما دامت النية متجهة إلى ذلك ، فكل عامل يعمل عملا لصالح هذه الأمة وهو يبتغى بإصلاحه وإتقانه وإحسانه نفعها ، فعمله عمل صالح ، فالمعلم الصادق القاصد إلى أن يحسن تعليم أبناء المسلمين ، وأن يخرج منهم رجالاً صالحين تنهض بهم أمته ، عمله هذا من صميم العمل الصالح ، وكذلك الصانع والزارع وكل من يباشر عملا لنفع الأمة فعمله هذا من الصالحات بلا شك [1] ويستحق عليه الأجر الذى سطره المولى – عز وجل – بقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

وإنما كان لهؤلاء – ابتداء – أجر لأنهم جمعوا بين أمر الدين كله ، وذلك عن طريق الإيمان والعمل الصالح – كما مر سابقا – فاستحقوا أن يكون لهم على عملهم هذا أجر من الله – سبحانه وتعالى –

ولكن الحق – سبحانه – جعل لهم أجرا مخصوصا ، ونعته نعتا دقيقا حيث قال: " لهم أجر غير ممنون " وغير الممنون بمعنى غير المقطوع من قولهم: حبل منين : إذا انقطع وخلق ، وقيل: من المن : أى: لا يمن به عليهم [2].

وإنما كان لهم أجر غير ممنون ؛ لأن الحق سبحانه ذكر حال السابقين عليهم من المشركين فقال:

---

(1) آل حم – غافر ، فصلت – دراسة فى أسرار البيان د/ محمد محمد أبو موسى ، ص٣٣٥ ، ٣٣٦ بتصرف – مكتبة وهبة – ط الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

(2) اللسان ٤١٥/١٣.

﴿ ... وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت ٦- ٧] وجزاء هؤلاء المشركين المجرمين قد بينته آيات كثيرة من الذكر الحكيم حيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ البقرة ١٦١- ١٦٢. ويقول أيضاً:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ التوبة ٦٨، ومن ذلك قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ الأحزاب ٦٤- ٦٥، وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ الزخرف ٧٤- ٧٥.

فإذا كان جزاء هؤلاء أن العذاب لا يفتر عنهم ولا ينقطع ، بل هو دائم دوام الأبد ، متواصل بالزيادة والمدد ، فإن الحق – سبحانه – أعطى هؤلاء المؤمنين أجراً غير مقطوع من النعيم واللذات ، مستمراً مدى الوقت ومرور الساعات ؛ ليزيد من عذاب المشركين المجرمين الذين وعدهم بالويل والثبور ؛ وذلك لأن أصحاب الويل من المشركين ، يعتريهم الهم والغم ، وتعلوهم الكآبة والحزن والحسرة – فوق ما هم فيه– إذا علموا ان المؤمنين فى نعيم مقيم خالدين فيه أبداً، لا ينقطع عنهم لحظة ولا يمنع منهم طرفة .

وكأن الحق – سبحانه – أراد أن يضع بين عينيك صورتين متقابلتين بين فريقين متضادين متناقضين ، فكما أن الذين كفروا لهم عذاب مقيم لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، فكذلك من آمن وعمل صالحاً له أجر غير مقطوع ولا منقوص، بل هو مستمر دائم ما دام الواحد القهار ، وما دامت الجنة والنار ، لتدرك الفرق

بين الفريقين ، والقدر بين الجزاءين ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة ١٨-٢٠] .

فإن قيل: كيف يكون لهؤلاء المشركين عذاب غير منقطع ، ويكون للمؤمنين أجر غير ممنون ، مع أن مدة بقاء هؤلاء على كفرهم فى الدنيا كانت قليلة ، ومدة عبادة المؤمنين فى دنياهم كانت يسيرة ؟ وهل يستحق من كفر مدة قليلة أن يعذب أبد الدهر، ويستحق من عبد مدة يسيرة أن ينعم أبد الدهر؟

والجواب على ذلك: أن الحق – سبحانه وتعالى – يعامل كلا من الفريقين على حسب ما كان يعمله منهم ، فهو سبحانه يعلم من الكافرين أنهم لو عمروا فى الدنيا إلى قيام الساعة ، لظلوا على كفرهم وتكذيبهم بما جاءت به رسلهم ، ولم يحيدوا عن ذلك قيد أنملة ، ويعلم من المؤمنين أنهم لو بقوا فى الدنيا إلى يوم القيامة ، لظلوا على عبادتهم وتقواهم ، ولم ينحرفوا عنها طرفة عين ولا أقل من ذلك ، ومن ثم عامل كلا منهم بمقتضى مقصوده وما كان يفعله ، ولو أتيحت له مدة البقاء هذا العمر المديد وما ربك بظلام للعبيد .

ومن ثم استثنى الحق هؤلاء المؤمنين من العذاب الأليم الذى بشر به الكافرون وأثبت لهم الأجر غير الممنون فقال: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ الانشقاق ٢٢- ٢٥.

كما استثناهم من عذاب النار – على أحد القولين – فى موضع آخر ووعدهم بالأجر نفسه فقال:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين ٤-٦] .

والاستثناء الوارد فى آية الانشقاق استثناء من مصير الكافرين المكذبين، وهو الذى يقال عنه فى اللغة: استثناء منقطع ؛ وذلك لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء فى تلك البشارة السوداء ، التى أظلت أولئك التعساء ثم استثنوا منها – وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. . . .﴾ – ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى [1].

وكان الحق – سبحانه – يريد أن يلفت النظر ويصرف القلوب والسماع إلى ما أعد لهؤلاء المؤمنين من النعيم الخالد واللذات الدائمة ، ليدرك اهل البصر والبصيرة جزاء السالك طريق الله والمنحرف عنه ومن ثم ليختر العاقل بعد أيهما شاء .

أما الاستثناء الوارد فى آية التين فتتوقف دلالته على معرفة المراد من قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ حيث يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

فذهب البعض إلى أن المراد به: أسفل النار فى موضع العصاة والمتمردين على ربهم [2].

---

(1) فى ظلال القرآن ٦/٣٨٧٠ بتصرف.

(2) ينظر: التفسير الكبير ١٢/٣٢ ، وتفسير السعدى ص٩٢٩ .

والاستثناء على ذلك متصل ظاهر الاتصال ؛ لأن الصالحين مستثنون من الرد إلى ذلك الموضع وما فيه من العذاب ، وإنما رد الإنسان بعد خلقه فى أحسن تقويم إلى أسفل سافلين ؛ لعدم جريانه على موجب ما خلق عليه من الصفات التى لو عمل بمقتضاها لكان فى أعلى عليين [١] ينعم بلذات متوافرة وافراح متواترة ، ونعم متكاثرة فى أبد لا يزول ونعيم لا يحول ، وذلك بحق أجر غير ممنون [٢].

وذهب آخرون إلى أن المراد بقوله: " أسفل سافلين " أرذل العمر ، حيث يرد إلى الهرم ، وذهول العقل ، وتغلب الكبر ، حتى يصير لا يعلم من بعد علم شيئا [٣].

والاستثناء على ذلك منقطع ، بمعنى أن الصالحين من الهرمى والزمنى وأصحاب العلل والأمراض ، لهم أجر دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إياهم بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم [٤].

ومما يؤيد هذا المعنى ما رواه أبو موسى ﷺ عن النبى ﷺ انه قال: " إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما " صدق رسول الله ﷺ [٥].

فهذا من الأجر الدائم غير المنقطع ، وذلك من فضل الله تعالى وكرمه .

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود ١٧٥/٩ .

(٢) تفسير السعدى ٩٢٩ بتصرف.

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ٤٨٦/٨ ، وروح المعانى ١٧٦/٣٠.

(٤) الكشاف ٧٧٩/٤ بتصرف.

(٥) صحيح البخارى ٥٧/٤ ، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة – ط الأولى ١٤٢٢هـ .

والناظر فى نظم آيتى الانشقاق والتين يجد بينهما فارقا فى الحذف والذكر ، حيث حذفت الفاء فى قوله : " لهم أجر غير ممنون " من آية الانشقاق فقيل: " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون " بينما ذكرت فى آية التين فقيل: " إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون "

وهذا شئ يغرى بمعرفة السر فى حذف الفاء فى موضع ، وذكرها فى الآخر ، مع اتحاد الآيتين فى المقصد [١] .

(١)ولعل ذلك يرجع إلى أن السياقين مختلفان ، فسياق سورة الانشقاق أكثره فى ذكر الكافرين ، وقد أطال النظم فى ذكرهم ووصف عذابهم فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ [١٠ – ١٥] ، ثم قال مقرعا للكافرين ومؤنبهم: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٢٠ – ٢٤] ، فى حين لم يزد فى الكلام على المؤمنين – غير الآية التى معنا – عن قوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [٧ – ٩] ، فانظر كيف أطال فى وصف الكافرين وأعمالهم وعقابهم ، وأوجز فى الكلام على المؤمنين ، ومن ثم حذف الفاء من جزاء المؤمنين فى آية الانشقاق مناسبة للإيجاز فى الحديث عنهم ، فى حين لم يذكر الكافرين فى سورة التين ، ولم يزد على أن قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ، وهو غير صريح فى أن المقصود به الكافرون أو غيرهم .. ثم انظر إلى كل من السورتين ، وكيف= =تناولت الكلام على الإنسان ، فقد بدأت سورة الانشقاق بذكر كدح الإنسان ومشقته وتعبه ونصبه فقيل: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ [٦] ، وتوعده مولاه بركوب الأهوال والشدائد المتتابعة ، التى يفوق بعضها بعضا فى الشدة فقال: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ [١٦ – ١٩] فى حين بدأ سورة التين بتكريم الإنسان فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [٤] ، فناسب ذلك التكريم تأكيد استمرار أجره

وممن ذكر كلاماً طيباً – يجدر بالمرء أن يقف عنده ويطوف حوله – فى علة حذف الفاء وذكرها فى كل من آيتى الانشقاق والتين ، الإمام البقاعى ﷺ .

حيث بين أن آية الانشقاق لما تقدم عليها أن من حوسب عذب ، وذلك فى قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٢٤] ، لأن الحق – سبحانه – لا يعذبهم إلا إذا حاسبهم على أعمالهم ، وأعلمهم بخطئهم الذى أرداهم = تبين أن الناجى فى ذلك الموقف إنما يكون حسابه عرضا ، ومن ثم علم أنه ليس للأعمال دخل فى الحقيقة فى الأجر ، وإنما المدار كما قال – عليه الصلاة والسلام – على التغمد بالرحمة ، ومن ثم أسقط الفاء فى الحديث عن الأجر المؤذنة بالتسبب ، فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ تنبيهاً على ذلك .. بخلاف آية التين فإن سياقها لمدح المؤمنين ، ومن هنا حسن أن يعد أعمالهم التى تفضل عليهم بالتوفيق إليها ، سبباً فى الأجر الواصل إليهم ، ولذا ذكر الفاء فقال: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى: فتسبب عن ذلك أن كان لهم فى الدارين على ما وقفوا له مما يرضيه أجر غير مقطوع ولا يمن عليهم به [١] .

*****

ثم يأتى مسك الختام فى الأجر غير الممنون ، فيما أورده الحق – سبحانه – فى مدح نبيه ﷺ حيث يقول: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم ٣] ، وقد جاءت هذه الآية عقب دفع الحق – سبحانه – البهتان عن نبيه ﷺ ونفى الجنون عنه

وعدم تنغيصه ، وذلك بزيادة (الفاء) فى التين دون الانشقاق [لمسات بيانية ص٢٦٣ ، ٢٦٤ بتصرف] .

([١]) ينظر: نظم الدرر ٣٧٤/٧ ، ٣٧٥ ، ٤٧٥/٨ .

بقوله: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم٢] ، فكانت بمثابة التكريم والتبجيل لرسوله ﷺ ومزيداً فى نفى الجنون عنه عليه السلام ، وذلك لأنها أثبتت له الأجر بأكثر من مؤكد ، فقد صدرت بـ (إن) وهى أم فى بابها ، وقدم الجار والمجرور فى قوله: (لك) فقيل: (وإن لك ...) ولم يقل: وإن أجرا لك ، وذلك لمزيد الاهتمام بأمر الأجر الخاص به ﷺ ثم زيد هذا التأكيد بـ (لام) الابتداء الداخلة على اسم (إن) فقيل: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ [1].

فكيف يكون من ثبت له هذا الأجر ، واكد بتلك الوجوه المؤكدة مجنوناً لا يعلم ما يقول ولا يعى ما يفعل ؟

وإنما كان له ﷺ أجر من الحق سبحانه لأنه تحمل من أعباء الرسالة ما لم يتحمله غيره ، وقاسى من الشدائد فى سبيل توصيل الدعوة إلى قومه وأمته ما لم يصبر عليه سواه ، ولأنه ﷺ جامع لكل أعمال البر ، وفاتح لجميع أبواب الخير ، وسالك بالأمة سبل الطاعات ، وقائدها فى مساعى الفضل ، والقربات ، فلم يقف ﷺ عند عمل دون آخر ، ولم يترك شيئاً يقربه إلى الله إلا وقد فعله ، ولا أمراً يستزيد منه رفعة إلا أداه ، وذلك حتى تتعلم منه الأمة كيف يكون علو القدر مدعاة إلى علو الهمة وشدة العزيمة ، ولا يكون سبباً فى التراخى والتكاسل والدعة وترك العمل ... وهذا هو السبب الذى من أجله لم يذكر للنبى ﷺ فى هذا المقام عمل مخصوص ، كما ذكر للمؤمنين من قبل .. كيف وقد تفجرت منه بحار الخير ، وأورقت من أخلاقه أشجار الطاعات ؟ .

([1]) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩/٦٢ .

وفى تنكير أجره ﷺ بقوله ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ ما يدل على عظمه وكثرته ، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام أهل لذلك ، وأكثر منه .

ولما كان الأجر لا يستلزم الدوام ، وقد يكون منغصاً بالمن والتكدير، وصف الله سبحانه وتعالى – أجره – عليه الصلاة والسلام – بأنه " غير ممنون " أى: غير مقطوع فى دنياك ولا فى آخرتك ، وليس لأحد من الناس أن يمتن به عليك بأن يذكره على سبيل اللوم والتقريع ، بل هو أجر لك من الحق سبحانه خالصا من المن والتكدير؛ لأنك حبيبه ، ومن شيم الأحبة ألا يمنوا على أحبائهم ولا يقطعوا عنهم عطاياهم [1].

وإنما كان أجره ﷺ " غير ممنون " لأنه ﷺ أعلى رتبة ، وأرفع منزلة ، ومكانة، ودرجة من المؤمنين الذين وصف الحق أجرهم بأنه " غير ممنون " ؛ لأنه ليس من المنطق أن يكون أجر الأتباع أعلى وادوم من أجر نبيهم ، وإن كان وصف الأجر بين المؤمنين والنبى ﷺ يتفق فى الصيغة " غير ممنون " إلا أن بينهما – بلا شك أو مراء – اختلافا فى الكم والكيف والمعنى المترتب على كل ، وذلك على حسب منزلة وقرب كل من ربه ، ولا خلاف فى أنه ﷺ الأعلى والأقرب منزلة ممن سواه .. هذا من وجه .

والوجه الآخر الذى يجعل أجره ﷺ " غير ممنون " أى: غير مقطوع أنه ﷺ دعا أمته إلى كل خير وحذرهم من كل شر ، فامتثلت أمته ما جاء به ، وعملت بما دعا إليه ، وكان لهم على ذلك من الله أجر ... ومن ثم كان له ﷺ مثل أجورهم التى منحوا إياها ؛ لأنه هو الذى دلهم على عمل الخيرات وترك المنكرات ، ودليل ذلك قوله ﷺ " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك

(1) ينظر: نظم الدرر للبقاعى ٩٧/٨.

من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً" [١].

وقوله ﷺ : " من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شئ ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزراهم شئ " [٢] صدق رسول الله ﷺ .

فهل يستحق الأجر المتواصل غير المقطوع من دعا إلى سنة حسنة أو إلى هدى وإيمان ، ولا يستحقه ﷺ الذى سن كل سنة حسنة ، ودعا إلى كل هدى وفلاح وصلاح؟!

ولله در الإمام البقاعى ﷺ حين ذكر من الوجوه التى فسر بها قوله تعالى: " وللآخرة خير لك من الأولى " الضحى ٤، أن المراد : وللحالة المتأخرة لك خير من الحالة المتقدمة ، ليفهم منه أنه ﷺ لا يزال فى الترقى من عَلىً إلى أعلى منه، ومن كامل إلى أكمل منه ، دائما أبدا لا إلى نهاية [٣].

وما ذاك إلا لأن كل أعمال الأمة وما تقوم به من خير يوضع مثله فى سجل صحائفه وأفعاله المضيئة النيرة ﷺ ؛ لأنه هو الذى دلهم على هذه الأعمال وأرشدهم إليها وعلمهم إياها، وعلى ذلك فأجره ﷺ غير ممنون بحال من الأحوال طالما هناك موحد على وجه الأرض وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) سنن أبى داود ٣٣١/٤ ، برقم ٤٦١١ ، دار الكتاب العربى – بيروت.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٩٥/٣١ برقم ١٩١٥٦ ، تح/ شعيب الأرناؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

(٣) ينظر: نظم الدرر ٤٥٥/٨، ٤٥٦ بتصرف.

ولا يخفى على أهل البصر أن التعبير بقوله: " غير ممنون " من الألفاظ المتسعة الدلالة ، إذ يوجد فى جعبتها أكثر من معنى لها ؛ لأن غير الممنون إما أن يكون من: منَّه يَمُنُّه مَنّاً بمعنى قطعه ، وعلى ذلك فـ " غير ممنون " بمعنى غير مقطوع ، وإما أن يكون من: مَنَّ يَمُن مَنّاً ، أى: اعتقد عليه مناً ، وحسبه عليه ، وعلى ذلك فـ " غير ممنون " أى: لا يمن الله عليه به ، أو على المؤمنين به ، فهو أجر غير مكدر بالمن [1].

والحق أن كل ذلك مراد وهو من صفات الثواب ، لأنه يجب أن يكون غير منقطع ، وأن لا يكون منغصا بالمنة ، فقال: ﴿ غير ممنون ﴾ ليجمع أكثر من معنى ، ولم يقل: غير منقطع ولا نحو ذلك لكى لا يفيد معنى دون آخر ؛ لأن ما هنا تكرمة للرسول ﷺ والمؤمنين [2].

(والله أعلم)

(1) ينظر: اللسان ٤١٥/١٣.

(2) ينظر: التفسير الكبير ١٢/٣٢ .

الخـــاتمة

الحمـد لله العزيـز الغفـار ، خـالق الشـموس والأقمـار ، ومكـور الليـل علـى النهـار ، والصـلاة والسـلام علـى خـاتم الرسـل الأطهـار ، وسـيد المتقـين الأبـرار ، وعلـى آلـه المصـطفين الأخيـار، وسـلم تسـليماً كثيـراً إلـى يـوم المسـتقر فى دار القرار ...

ثم أما بعد ؛؛؛

فبعد هذا الإبحار ، فى بعض آيات الكتاب المختار ، نلقى عصا التسيار ، ونحط رحالنا على شاطئ أسراره ، وندعوه سبحانه أن يلهمنا بعضاً من فيض أنواره ، لنذكر أهم النتائج التى وقع عليها البصر ، وكانت محل النظر ، فمن ذلك ما يلى:

أولا: أن مع الإقراض والدعوة إليه يكون الأجر كريما ، لأن الذى يقرض الله قرضا حسناً، ويخرج نفائس أمواله لمن هدته الحاجة ، وكدته الفاقة ، فذلك رجل كريم، ومن ثم استحق أن يكون جزاؤه من جنس عمله ، حيث ضوعف له أجره على قرضه – من باب الكرم – إلى ثمانية عشر .

ثانيا: وقوع وصف الأجر بالحسن فى سياق يغلب عليه ظل الإنذار الصارم الخاص بالكافرين كما فى آية الكهف ، أو فى سياق الحديث عمن وقعت منهم معصية كبيرة ، كما فى المخلفين من الأعراب ، كما هو الشأن فى سورة الفتح .

ثالثا: وصف الأجر فى مقام الإنفاق بأنه كبير، لأن صاحب المال دائما ما يتطلع إلى الربح والزيادة ، ومن ثم وعد بأجر كبير، حتى تطمئن نفسه إلى أن ماله الذى أنفقه فى تجارة رابحة مع الله ، فلا خسارة تحتمل أو ضياع للمال ينتظر

، ويلاحظ أن لفظ كبير فى الآيات كلها جاء ليقابل رضوان الله فى الجنة ، حيث يقول سبحانه ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة ٧٢] .

رابعا: انفردت فضيلة الجهاد من بين صنوف الطاعات بأن الأجر عليها عظيم ، لعظم شأنها فى الإسلام وعلو قدرها بين الطاعات ، بينما نعت أجر غيرها من الطاعات بأكثر من وصف ، وذلك على حسب درجة كل منها والإخلاص فيها .

خامسا: فى وصف الأجر بالنسبة للمؤمنين بأنه غير ممنون، ذكر لهم عمل كان ركيزة فى نعت أجرهم بذلك ، بينما فى وصف أجر النبى ﷺ بأنه غير ممنون ، لم يذكر له عمل ؛ وذلك لأنه الجامع لكل صنوف الخير وأنواع البر .

سادسا: فى جميع المواضع التى وردت فيها كلمة الأجر جاءت منكرة وجاء نعتها منكراً كذلك ، وفى ذلك دلالة على التعظيم والتكثير المتعلقين بالموصوف والصفة .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المصـــادر والمراجـــع

١- القرآن جلَّ من أنزله .

٢- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، تـح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

٣- الأطـول شـرح تلخـيص مفتـاح العلـوم – لإبـراهيم بـن محمـد بـن عربشـاه ، تـح/ عبـد الحميـد هنـداوى – دار الكتـب العلميـة – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

٤- أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى ، تح/ عبد القادر أحمد عطا – دار الاعتصام – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ .

٥- آل حم ، غافر – فصلت ، دراسة فى أسرار البيان ، د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبه – الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

٦- الإمام البقاعى ومنهاجه فى تأويل بلاغة القرآن ، د/ محمود توفيق محمد سعد – مكتبة وهبه – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .

٧- أيسر التفاسير لأبى بكر الجزائرى ، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة – السعودية ، الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٨- الإيضاح فى علوم المفتاح للخطيب القزوينى – دار إحياء العلوم – بيروت – الطبعة الرابعة ١٩٩٨م .

٩- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ، تح/ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

١٠-البديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ ، تح/ أحمد أحمد بدوى ، حامد عبد المجيد ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة .

١١-بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ، تح/ حفنى محمد شرف – نهضة مصر ٠ الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ .

١٢-البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى وشركاه .

١٣-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدى ، مكتبة الآداب – الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .

١٤-البلاغة الواضحة – لعلى الجارم – دار المعارف – القاهرة .

١٥-تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ، تح. د/ حفنى محمد شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

١٦-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – الطبعة التونسية – دار سحنون للنشر ١٩٩٧م .

١٧-تفسير أبى السعود – دار إحياء التراث العربى – بيروت .

١٨-تفسير البغوى – تح/ محمد عبد الله النمر وآخرين – دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

١٩-تفسير السعدى ، تح/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٢٠-تفسير الشعراوى ، كتاب من الحاسب الآلى ، المكتبة الشاملة – قسم التفاسير .

٢١-التفسير الكبير للفخر الرازى – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

٢٢-جامع البيان فى تأويل القرآن لابن جرير الطبرى ، تح/ أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٢٣-جمهرة اللغة لابن دريد – دار صادر – الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ .

٢٤-خزانة الأدب لابن حجة الحموى – تح/ عصام شعيتو – دار ومكتبة الهلال – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

٢٥-دلالات التراكيب ٠ دراسة بلاغية ، د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

٢٦-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ، تح د/ محمد التنجى – دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

٢٧-روح البيان للإسماعيل حقى – دار إحياء التراث العربى – بيروت.

٢٨-روح المعانى للآلوسى – دار إحياء التراث العربى –بيروت.

٢٩-سنن أبى داود – دار الكتاب العربى – بيروت .

٣٠-سنن ابن ماجه – تح/ محمد فؤاد عبد ابلاقى – دار الفكر – بيروت .

٣١-السنن الكبرى للبيهقى – الناشر مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند – الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ .

٣٢-شرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان للسيوطى – مطبعة الحلبى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م .

٣٣-شعب الإيمان للبيهقى ، تح/ محمد السعيد بسيونى – دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٣٤-صحيح ابن حبان ، تح/ شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

٣٥-صحيح البخارى ، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة – الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

٣٦-صحيح البخارى ، تح/ مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٣٧-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحى بن حمزة العلوى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٣٨-العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق – تح/ محمد محي الدين عبدالحميد –دار الجبل – بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣٩-غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

٤٠-فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى – مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٠هـ .

٤١-فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب – دار الشروق – الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٤٢-كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، تح/ على محمد البجاوى ، محمد أبوالفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٤٣-الكشاف للزمخشرى ، تح/ عبد الرازق المهدى – دار إحياء التراث العربى – بيروت – مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٤٤-الكليات لأبى البقاء الكفومى ، تح/ عدنان درويش – محمد المصرى مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٤٥-لسان العرب لابن منظور – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى .

٤٦-لمسات بيانية د/ فاضل صالح السامرائى ، كتاب من الحاسب الآلى – المكتبة الشاملة – قسم علوم اقلرآن .

٤٧-المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير – تح/ محمد محيى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥م .

٤٨-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن أبى بكر الهيثمى – دار الفكر – بيروت ١٤١٢هـ .

٤٩-مختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى – دار الفكر – الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

٥٠-مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تح/ شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٥١-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – للشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقى – دار الحديث – القاهرة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

٥٢-المعجم الكبير للطبرانى ، تح/ حمدى بن عبد المجيد السلفى – مكتبة العلوم والحكم – الموصل – الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

٥٣-معجم لغة الفقهاء – كتاب من الحاسب الآلى – المكتبة الشاملة – قسم معاجم اللغات الأخرى .

٥٤-مفتاح العلوم للسكاكى – المطبعة الأدبية بمصر – الطبعة الأولى .

٥٥-المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى – تح/ محمد سيد كيلانى – دار المعرفة – لبنان .

٥٦-مقاييس اللغة لابن فارس ، تح/ عبد السلام هارون – دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٥٧-من أسرار التعبير القرآنى – دراسة تحليلة لسورة الأحزاب ، د/ محمد محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

٥٨-المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع لأبى محمد القاسم السجلماسى ، تح/ علال الغازى – مكتبة المعارف – الرباط – المغرب – الطبعة الأولى١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

٥٩- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ، تح/ عبد الرازق غالب المصرى – دار الكتب العلمية –بيروت– ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

المخطوطات

١- بلاغة التكرار فى القرآن الكريم – رسالة دكتوراه من إعداد الباحث / محمود عبد الحميد هوى ، مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة، نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .

٢- متشابه النظم القرآنى بين الذكر والحذف رسالة دكتوراه من إعداد الباحث/ سلامة دردير محمد على ، مخطوط فى كلية اللغة العربية بأسيوط ، نسخة مودعة بمكتبة الجعفرى ببنى عدى .